شارل دي غول

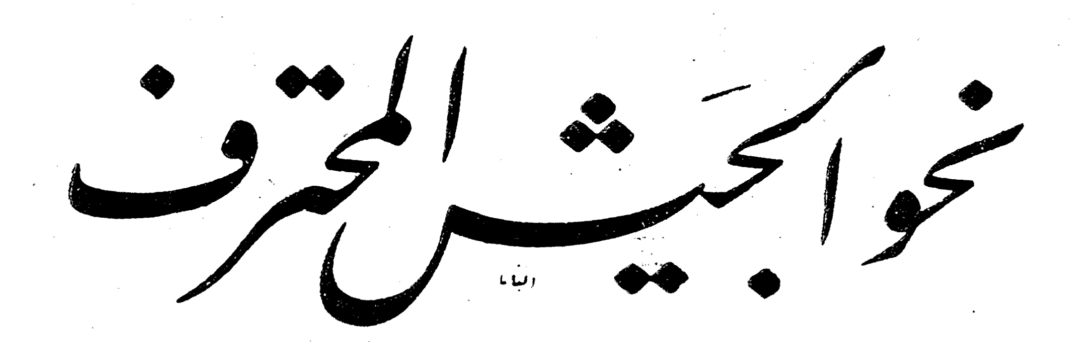
نحو الجيش المحترف

دار المكشوف، بيروت

نحو الجيش المحترف

الطبعة الاولى ، ١٩٤٣

شارل دى غول



نقله الى العربية

لويس الحاج

مَنشُورَاتُ « دَارِ المَكشُوف »

بيروت ❁ ١٩٤٣

طبع من هذا الكتاب ٣٠٠٠ نسخة على ورق اعتيادي

و ٢٤ نسخة على ورق « هولزفري »

مرقمة من ١ الى ٢٤ ،

و ١٠ نسخة على ورق « بولكي »

منمرة بالارقام الرومانية

من I الى X

عنيت بنشر هذا الكتاب

اركان حرب القوات الفرنسية المحاربة

في الشرق الاوسط

الى الجيش الفرنسي

لخدمة ايمانه

وقوته

ومجده

لماذا ؟

الغطاء

١

كما توحي الصورة الى المتأمل فيها الشعور بما كتب لصاحبها في لوح القدر هكذا تكشف خريطة فرنسا عن حظنا . يبدو هيكل الوطن وفي وسطه قلعة حصينة قوامها سلسلة من الجبال المتماسكة الشديدة المراس ، تكملها عن جانبيها انجاد « لانغدوك » و « ليموزين » و « بورغونيه » وحولها منحدرات واسعة معظمها وعر المسالك امام من يتهددها من الخارج ، تتقاطعها مهاوٍ : انهر « السون » و « الرون » و « الغارون » ، وحواجز عالية : جبال « الجورا » و « الالب » و « البيرينه » ، ويغتسل طرفها بعيداً في بحر المانش او في المحيط الاطلسي او في البحر المتوسط .

بيد ان ثغرة مهولة في شمالي فرنسا الشرقي تصل بالاراضي الجرمانية احواض نهري السين واللوار الرئيسية . اما نهر الرين الذي جعلته الطبيعة حداً للغوليين وحامياً ، فانه ما يكاد يلامس فرنسا حتى يبتعد عنها ويكشفها .

نعم ، ثمة جبال « الفوج » التي يتألف منها حاجز قوي ،

ولكن الالتف حوله ممكن اما من ممر « بلفور » او من منطقة البحيرات المالحة .

وهناك ضفاف نهري « الموزيل » و « الموز » تستند من جهة الى نجد اللورين ، ومن جهة اخرى الى نجد الاردين ، مؤلفة حواجز لا بأس بها ، الا انها قليلة العمق بحيث يكفي لسقوطها خطأ او مباغتة او اهمال ، كما يجعلها سهلة المأخذ من الوراء اول انكفاء يحصل في « هينو » او في « الفلاندر » ، لانه لا يتخلل هذه السهول المنخفضة جدار ولا خندق يمكن ان تتكمش بها المقاومة ، وليس ثمة خطوط من المرتفعات المتسلطة ولا انهر موازية للجبهة .

بل هنـاك ما هو ادهى ، فجغرافية هذه الاراضي تسهل مهمة الغزاة بوضعها في متناولهم عدداً من طرق التسلل : اودية « الموز » و « السامبر » و « الايسكو » و « السكرب » و « ليس » حيث تتطوع المجاري والطرق والخطوط الحديدية لارشاد العدو .

واذا كان شكل الحدود الشمالية الشرقية لا يبعث على الرضى ، فتخطيطها الناتىء هو ايضـاً من بواعث القلق . فالخصم الذي يضرب ، في وقت واحـد ، في « الفـلاندر » و « الاردين » و « اللورين » و « الالزاس » ، وعلى باب « بورغونيه » انمـا يسـدد ضربات مركزة ، فاذا انتصر في نقطة ينهار تحت ضربتـه الظافرة جهاز الدفاع الفرنسي كله ، او تنتهي بـه اولى خطـاه الناجحة الى انهر « السين » و « الاوب » و « المارن » و « الاين » او « الواز » ، ولا يبقى امامه الا عبور هـذا النهر ليصل الى قلب

فرنسا، الى باريس ، ملتقى الانهر المار ذكرها .

هذه الفجوة في السور الذي يحمي فرنسا من الشمال الشرقي هي نقطة الضعف ، بل العلة المزمنة التي شكا ويشكو منها الوطن. فمنها رأت بلاد الغول الرومانيـة البربر يتدفقون متكالبـين على ثرواتهـا . وعندها استطاعت الملكية ، بعـد لأي ، وقف ضغط الامبراطورية الجرمانية . وهنا دافع لويس الكبير عن سلطانه ضـد اوروبا المتألبة عليـه . وهنا ايضاً اشرفت الثورة على الهـلاك ، وسقط نابوليون . وفي العام ١٨٧٠ لم تسلك النكبة والعار طريقاً غير هذا الطريق .

وفي هذا الممر المميت دفنا نحن ثلث شبابنا .

واذا صرفنا النظر عن الازمات الحربية نجد ان فرنسا كادت ترزح تحت ثقل القلق الذي يساورهـا بسبب ضعف حدودها . فكم من مشروع اطرح وآخر مني بالاخفاق، وكم من امل صرعته الخيبة لانه ليس للوطن سياج يحميه . ومن جراء هـذا الضعف عينه فقدنا السيطرة على البحار وصار توسعنا موثقا برهن ، ودفعنا ثمن محالفاتنا غالياً وتحملنا الاراجيف وتخلينا تحت ضغط القوة عن حقوق لنا مكتسبة . اما الشعب الذي يلاحقه الخوف من الاجتياح فقد ساد صفوفه الاضطراب والمنازعات والقرف .

ان قيام باريس حيث هي ما كان ليهم ملكا من « الكارولنجيين » ، اما آل كابيت فقـد كان له من تفكيرهم نصيب . ثم صار لآل « فالوا » هاجساً ، وكابوساً يضغط على صدر آل بوربون . وقـد

قاست فرنسا في القرن التاسع عشر عبودية ساحقة من جراء هذه الحالة . فما كان شأنها في الحرب العظمى واي شأن سيكون لها غداً ؟

ان المسافة التي تفصل باريس عن اقرب بلد اجنبي لا تزيد على مئتي كيلومتر ، يقطعها الماشي في ستة ايام ، والسيارة في ثلاث ساعات ، والطائرة في ساعة واحدة . فالنكبة التي تحل بنا عند منابع « الواز » تضع قصر « اللوفر » في متناول المدفع . اذن يمكننا ان نصف مع « فاليري » دور باريس بانه « عظيم » وفريد معاً .

ان هذه الحاضرة التي لا يبلغ نصف قطر دائرتها ثلاثة فراسخ تسوس كيان الامة كلها . فمن سبعة فرنسيين واحد يقطنها ويخضع الستة الباقون لما يقال فيها ولما يفعل . فسلامتها او ضياعها يكادان يكونان موازيين لسلامة الدولة او ضياعها . ففي كل مرة استولى العدو على باريس خلال القرن الماضي لم تستمر مقاومة فرنسا ساعة واحدة .

ان جانباً كبيراً مما هو ضروري لنا يتراكم على مقربة من حدودنا . بيد ان الامر لم يكن كذلك في كل وقت . فقد مثلت هذا الدور في الماضي مقاطعات « البروفنس » و « الاكيتين » واودية « الرون » و « السون » و « اللوار » ، اما في عصرنا هذا ، عصر الآلة ، فالفحم الذي تنتجه فرنسا يخرج ثلثاه من الاراضي المتاخمة للاراضي الالمانية ومثله الحديد والنفط . ومن ١٥٠ فرناً

لصهر المعادن يقوم مئة وعشرون في « اللورين » ويقوم اكثر معامل النسيج ومصانع السيارات والطائرات والمستحضرات الكيمائية شمالي وادي « السين » . وفي « بري » و « الفلانـدر » اجود اراضينا لزراعة الحنطة . ويعتاش من الحوض الباريسي خمسة عشر مليوناً هم اكثر الفرنسيين توليداً ، ويملكون ثلثي ثروة البلاد .

وهكذا ما ان يخرج المرء من بلجيكا حتى يجـد نفسه وسط مصانع « روبـه » ومناجم « دينان انزان » وافران « الموز » ، ومن المانيا يمكن اطلاق المدافع على « بيشلبرون » والبنـادق على « ستراسبورغ » ، فالوصول الى كنوزنا لا يـكلف كبير عناء ومشياً طويلا .

هذا العيب الجغرافي خاص بفرنسا دون سائر الدول . فالاوقيانوس يأخذ على عاتقه تغطية انكلترا واميركا واليابان . ويحمي القوس الكبير الذي يتألف من جبال الالب مداخل الدولة الايطاليـة ، وتجعل المساحة الكبيرة من روسيا بلاداً عزيزة المنـال ، وتحمي جبال « البيرنه » ومساحة من الاراضي جرداء البلاد الاسبانيـة . وكم هي بعيدة وموزعة الاوساط الحيوية في المانيا : الرور ، هارز ، الساكس ، سيليزيا ، فاذا حاولنا الوصول اليها يتعين علينا اولا ان نذلل العقبات التي تقيمها في طريقنا كتلة مرصوصة من الحواجز الطبيعية : اودية ضيقة ، منحدرات وسفوح وعرة ، احراج كثيفة وبعيدة الغور ، رؤى خداعة ، ضباب ، عفاريت وسحر . هـل استطاع فاتح عبور نهر الرين وبلوغ الاراضي الجرمانية ؟ ان هذه

الارض وما يتخللها من نتوءات يناضلان ضد المجتاح . فاذا سلك طريق الجنوب قام في وجهه عشرون مرتفعاً لا تتخللها فرجة : جبال باد وهس ووسفاليا وساكس وفرانكونيا متسلطة على كل جهة تعمل متساندة على تبديد شمله ، وان هو سلك طريق الشمال قطعها عليه عدد عديد من الانهر والمستنقعات الجبلية ومقالع الفحم والبطاح الرملية ومناطق البحيرات المنبسطة الى ما لا نهاية له ، كل هذا يستنفد قواه ويثبط عزيمته . لقد فهم هذه الحقيقة قديماً « فاروس » (١ و « سوبيز » (٢ و « ومورو » (٣ ، وبالامس تردد فوش امام هذه العوائق نفسها تردده الرائع .

خمس ساعات يقضيها المسافر طائراً بين برلين وباريس تريه عناصر الطمأنينة الالمانية وعناصر الضعف الفرنسي مرسومة على الارض . يمكن المسافر بعد تركه اطراف نهر « السبره » ان يعد حتى نهر « الموز » في ساعات فراغه الطويلة ١٢٥ فرسخاً ويميز مهاوي « الايلب » و « الاليه » و « اللين » و « والويزر » و « الرين » التي تغطي من قرب ومن بعد عاصمة الامبراطورية الجرمانية ، وان يشاهد قلاع « هارز » وجبال « هس » و « روتارجبرج » و « ايفل » التي اختصت بها الطبيعة الجرمان .

---

١) قائد روماني في عهد الامبراطور اوغسطس استدرجه ارنيوس قائد الجرمانيين الى كمين فهلك مع ثلاثة جحافل .

٢) قائد فرنسي هزمه فريدريك الكبير في معركة روسباخ .

٣) قائد فرنسي عاصر نابوليون ونافسه .

وما ان تقع العين على آخر هذه المشاهد حتى تأخذ الارض بالانبساط والليونة وتبدو آهلة ، فلا جبال ولا ممرات ضيقة ولا منحدرات . هذه فرنسا .

اجل ، ما يكاد المسافر يدخل فرنسا ويشاهد الارض التي لها شكل الطست والتي تأخذ بالانخفاض كلما اوغل بالسير نحو اواسطها ، ويرى الانهار والخطوط الحديدية وطرقها ذات الوجهة الواحدة ، وشكل الضاحية الذي يتخذه الريف بسرعة ، حتى يشعر ان باريس على مقربة منه . ولكن ها هي طلائعها : أثر تاريخي ، مخزن كبير ، مصنع ، ملتقى الف شريان حيوي ، لا تحرسه سوى مرتفعات ضئيلة الشأن ، تحوطه غابات قليلة الكثافة ، ولا حصون تحميه ، انه فريسة في متناول اليد ، ما اجملها وما اسهل قنصها !

٢

كان نابوليون يقول : « سياسة الدولة في جغرافيتها . » فالغطاء الذي تضن به الطبيعة على فرنسا ، ما انفك الفرنسيون طوال قرون ينشدونه بالديبلوماسية . لقد اتيح لسوانا ان يسعى الى السيطرة على البحار واستثمار الاراضي البعيدة ، والبحث عن منافذ حرة والعمل على لم شعث عنصر مبعثر ، اما نحن فقد انحصر همنا بحماية حدودنا المسدسة الزوايا .

كان في طليعة الاهداف التي رمت اليها المشاريع الفرنسية في الف عام ، والمعاهدات التي عقدتها بلادنا ، اقامة نظام

سياسي كفيل بمنع جيراننا من ايذائنا . وبفضل هذه الجهود المتواصلة قيض لنا ان نعيش . الا اننا اليوم محرومون من الضمانات المطمئنة اكثر منا في اي وقت .

نعم ، زال عن فرنسا الخطر الذي كان يتهددها من الشمال ، وتوقفت الغزوات الانكليزية منذ اكثر من قرن . وتمكنت لندن وباريس بعد مصادمات عديدة من تنظيم العلاقات فيما بينهما تنظيما ضمنياً : يمكن فرنسا الاعتماد على الحياد الانكليزي ، وهو حياد حسود وفرنسا في حالة الاقبال ، وعطوف عندما تكون في محنة ، وقد ينقلب احياناً تحالفاً بين المصالح على ان نعترف مقابل هذا بسيطرة البريطانيين على البحار ، ونضحي بمستعمرات واسعة ، ونتعهد بصرف النظر نهائياً عن المطالبة ببعض الجزر النورمندية ، وان نقبل على تصرفاتنا ضرباً من الاشراف ...

نعم ، طوى ماض سحيق اسباب النزاع بيننا وبين الاسبانيين . فمنذ مئتي عام امتنعت مدريد عن شهر السيف ضدنا الا في حالة الدفاع المشروع ، وقد املى عليها هذا الموقف عوامل شتى منها انفصالها عن الجرمانيين واقصاؤها عن البلاد المنخفضة ، والاضطراب الذي سادها من جراء الحركات الانفصالية والافلاس الذي جرته عليها امبراطوريتها ، واخيراً اشرافها على الزوال بعد فقدانها هذه الامبراطورية .

وما من شك في ان صداقة السويسريين ، التي داراها كل نظام حكومي تعاقب على فرنسا ، والتي تبدو اليوم أثمن من اي

وقت ، هي الحاجز الذي يحمي مداخل « بورغونيا » ووادي « الرون » .

وما من شك ايضاً في اننا بعد ان حاولنا مراراً تسوية الخلافات وبيننا وبين ايطاليا باللجوء الى التحكيم استطعنا ان نحقق وحدتنا الوطنية في الجنوب الشرقي وان نقنع « البيمونتي » (١ بواب الالب سابقاً ، بان يعيد الينا مفاتيح جبالنا . ولكن دولة كبرى قامت في شبه الجزيرة الايطالية ، وها هي حمى النمو التي تنتابها تلقي بها تحت رحمة هاجس بل كابوس مخيف : انها تحلم بالامبراطورية .

لقد كان يخيفها آل « هابسبور » ، فازاحت الحرب الماضية هذا الكابوس عن صدرها . ولم تبق اراض بكر يترك لها السيطرة عليها . ان ثروتنا تغري بنا هذا الشعب الذي يحرك مطامعه ويزيدها هياجاً الخطر المسلط على اضعف حدودنا من جانب اقوى جيراننا .

ذلك ان الانتصارات التي احرزها على مر الايام الغوليون والجرمانيون ، كل بدوره ، ما فضت خلافاً ولا شفت غلة ولا اشبعت نهما . وقد تنهك حرب من الحروب الشعبين معاً فيبدوان وقد اوشكا ان يتقاربا كما يتساند المتصارعان المترنحان ولكن ما ان يتمالك الواحد منهما قواه حتى يعود الى التربص بالآخر .

يجد عدم الاستقرار هذا تفسيره في طبيعة الاشياء نفسها ،

---

١) اي الشعب الايطالي .



حدود فرنسا الشمالية الشرقية

فليس هناك حد جغرافي يجعل كفة احد العنصرين راجحة على كفة العنصر الآخر ، فينشأ عن هذا ارتشاح دائم يتسبب عنه تزايد التأثيرات المتبادلة ، ويجعل كل محاولة لتحديد نطاق ميادين النشاط عملا جائراً . فاينما تقم الحدود الفرنسية الالمانية تكن شفة الجرح ، وانى تهب الريح التي تكنس هذه الحدود تهب مثقلة بالنيات السيئة .

ويزيد تعارض الامزجة الشعبين المتجاورين تباعداً . ولا يعني هذا ان الواحد منهما لا يقدر قيمة الآخر قدرها ولا يفكر احياناً في الاعمال العظيمة التي يمكن ان تتحقق بفضل تعاونه والشعب الآخر ، ولكن التفاعلات عندهما متباينة لدرجة تجعلهما يتبادلان الحذر باستمرار . فهذا الفرنسي الذي يهتم بتنظيم افكاره ولا يعنى الا قليلا بتنظيم اعماله ، هذا العالم المنطيقي الذي يشك في كل شيء ، هذا العامل المتهاون ، هذا الذي يلازم بيته ويستعمر ، هذا المولع بالوزن الطويل من الشعر وبالثوب ذي الذيل ، والحديقة الملكية ، والذي رغم هذا كله يغني ويلهو ويتعرى ويلوث المرج الاخضر ، هذا اليعقوبي الذي يهتف بحياة الامبراطور ، هذا السياسي الذي يعمل الاتحاد المقدس ، هذا الذي انهزم في شارلروا وكر في المارن ، هذا الشعب المتحرك ، المتردد ، الكثير المتناقضات ، كيف يمكن الجرماني ان ينضم اليه ويفهمه ويرتاح الى صحبته ؟

اما نحن فيقلقنا في المانيا حيويتها الفطرية : مجموعة غرائز قوية

ولكنها مضطربة ، فنانون موهوبون ولكن لا ذوق لهم ، اخصائيون لم يتحرروا من التقاليد الاقطاعية ، ارباب عائلات محبون للحرب ، مطاعم لهـا شكل الهياكل ، مصانـع انشئت وسط الغابات ، قصور غوطية لقضاء الحاجـة ، بغاة يريدون ان يحبهم الناس ، انفصاليون يخضعون لحركة من الاصبع او من العين .

اوقيانوس عظيم معتكر تسحب منـه الشبكة المسوخ والكنوز سواء بسواء ، كاتدرائية صحنها متعدد الالوان تشتمل على حنيات عظيمة تتجاوب فيها اصوات متفاوتة الانغـام ، تنتظم فيها سنفونيا للحواس والفكر والروح مما في العالم من تأثر ونور وديانة ، ولكن « الخورس » المظلم تضج فيه ضوضاء بربرية تنفر منها العين والفكر والقلب .

نجح حكام فرنسا عدة قرون في حصر الخطر المطل على البلاد من الشرق ضمن دائرة محدودة بسياسة تقليدية ترمي الى احـداث التفرقة في صفوف جيراننا .

واستطاعت فرنسا ، حتى الماضي القريب ، ان تمنع المانيـا من ان تلقي عليها ثقلها كله ، اما باللجوء الى السلاح في سبيل توسيع الحدود ، بحجة الارث تارة وطوراً بحجة حماية الآخرين وانقاذ الحرية المهددة ، ومتذرعة احياناً بحق القوي ، او بتعهدها في اللورين وعلى الرين والبلاد المنخفضة صداقات قائمة على العاطفة او المصلحة ، او باستثمارها ميـل الجرمان الى التكتل القبلي والى التجمع الانفصالي والاستقلال الذاتي ، او بعقدها محالفـات مـع جيران

الجرمانيين في الشرق والجنوب والشمال لتحقيق التوازن في اوروبا .

اما اليوم فلم يبق مجال للجم هيجان « التوتون » بالقوة والدسيسة معاً. ولم يبق ثمة امراء بروتستنتيون يجبهون شارلكان ، ولا سليمان يطلق لتهديد فيانا ، ولا غوستاف ادولف يدفع الى مساعدة ريشليو ، ولا امير اسقف يمكن شراؤه بالمال ، ولا محالفات نسعى الى تفكيكها ، ولا اتحاد دويلات الرين ، ولا منافسات بين آل هابسبور وآل هوهنزولرن ، ولا امان مكبوتة تجيش في صدور آل ريتلباخ .

وها هي الوحدة الالمانية ، التي ساعدت على تحقيقها اوهامنا ، ووطدت دعائمها هزائمنا ، وثبتها استعجالنا في الحد من مدى انتصارنا الاخير ، قد جعلت جارتنا الجبارة قادرة على الاندفاع نحو الغرب في وثبة واحدة ودون تمهل .

الا ان الوحدة الالمانية تمتحن في الداخل امتحانات قاسية . انه ليشق على البافاري ان يتقدم عليه البروسي ، وعلى ريناني كاثوليكي ان يأتمر اوامر الموظفين البروتستنتيين ، وعلى تاجر من هامبور ان يخضع للنظام الذي يخضع له اعيان الريف . وبالرغم من الظواهر تظل المناطق والاحزاب والسلطات الحاكمة والجمعيات والشركات خاضعة لالف نزعة متنافرة . والخوف من هذه الفوضى هو ما يدفع بالامبراطورية الجرمانية الى الاكثار من مشاريع الفتح . فالشرط الاساسي لبقاء الوحدة هو التوسع .

ادرك بسمرك هذه الحقيقة ، ولكن ما ان بدا عليه انه نسيها

حتى بادر امبراطوره الشاب الى عزله ، معتمداً على تأييد الامة لسياسته . واليوم يتجه الريخ نحو المنحدر نفسه . ومن يدري ، فقد تجذب ازمة اخرى الالمان نحو باريس .

فاي الطرق تسلك القوات الالمانية الرئيسية لدخول الارض الفرنسية ؟ المفهوم ان قوتين تتبادلان العداء ، تسلكان الطريق الاقصر لتقتتلا ، والخط الذي يلتقي عنده محورهما هو الذي يعين اتجاه مجهودهما الرئيسي .

في عهد الجرمانيين ، الرعاة منهم والقناصين ، كان معظم القبائل يعيش في سهول الشمال . وعندما ضعفت الامبراطورية الرومانية وباتت عاجزة عن حماية نهر الرين ، صار الغزاة يتسللون من كولونيا ومن الساحل . ذلك ان سلوك هذه الارض المسطحة يحول بين الغوليين وبين حرب الكمين ، ولا يرهق الثيران التي تجر المركبات بطلعات مجهدة ، ولم تكن ثمة مجار قوية التيار ، فقد كان الغزاة يعبرون الانهر البطيئة دون عناء .

تجمع الفرنجة على ضفاف نهر « الايسكو » . وما ان اصبح الشعب الالماني فلاحاً حتى تجمع على الانجاد الكلسية وفي الاودية ذات التربة الرخوة القائمة في القسم الاوسط من البلاد : ولايات « السواب » و « فرنكونيا » و « هس » و « الساكس » ليتألف منها قلب الامبراطورية .

ومن ثم اصبحت بافاريا وفرنكونيا وباد وساكس او اللورين والالزاس وشامبانيا الميادين التي يتصادم فيها الفرنسيون والالمان

كلها عن لفريق ان يخضد شوكة الآخر . وكانت المعارك الحاسمة تسمى فريبور ، بلانهايم ، روساباخ ، كريفيل ، فالمي ، ويسمبور ، هوهنلندن ، اولم ، يينا ، ليبزيغ ، غرافيلوت ، وكانت البلاد المنخفضة تتحول الى ميدان رئيسي للعمليات كلها خطر لشعوب الامبراطورية ان تتعاون فيها وحلفاءها الانكليز والهولنديين والاسبانيين ، فتأخذ المعارك الحاسمة هناك اسماء : سان كنتان ، دينان ، واتيني ، واترلو .

بيد ان المانيا انتظمت منذ خمسين سنة في صف البلدان الصناعية والتجارية والبحرية ، فجذب فحم « وستفاليا » ومعادن « هارز » والموانىء الكبرى عند مصاب الانهر ، الطبقات النشيطة الى سهول الشمال . وارتقت برلين الى مصف العواصم الاقتصادية والروحية والسياسية . واقتنعت اغلبية الالمان بان الطريق المؤدية الى فرنسا تمر في بلجيكا مرور الخط الحديدي برلين — باريس فيها . وارتكزت خطة شليفن (١ المشهورة على حقائق قوية وجديدة . فهل كان معقولا ان تحول معاهدة حياد الى نانسي شعباً يحرضه سواده على الاتجاه شطر شارلروا ؟

من يدري ، فقد يلعب القدر غداً اللعبة نفسها (٢ فيجعل الجرمانيون وجهتهم الرئيسية منابع نهر « الواز » تشجعهم درعنا السريعة العطب ، وهم انما يفعلون هذا مسوقين بطبيعة الاشياء

---

١) شليفن هو واضع خطة الهجوم على فرنسا في الحرب العالمية الماضية .

٢) يلمح المؤلف الى خرق الالمان حياد بلجيكا ليضربوا فرنسا من اقرب طريق .

نفسها ، مسترشدين بخطوطهم الحديدية التي تنفذ ثمانيـة منها على الحدود شمالي تيونفيل ، تغريهم على اتخاذ الوجهة المذكورة طرق وستفاليا والفلاندر المعبدة واقنية الرور والبـلاد المنخفضة التي لا يحصرها عد ، ويدفعهم نحو كاليه وانفرس ميلهم الغريزي الى مراقبة انكلترا ، وعلى الجمـلة يحدوهم الى سلوك اقرب الطرق واسهلهـا تصميمهم على ضرب فرنسا في القلب .

يفهم من هذا كله ان حماية فرنسا من ناحية الطريق الاكثر خطراً تتوقف على البلجيك . فاذا اتفق ان قامت في وجـه المانيا حواجز قوية في الاردين واللوكسمبور ، يتسع امامنا مجال التأهب والاستعداد وتكتب الغلبة لامثال « كونده » و « جوردان »(١ ولكننا كنا نكره على خوض غمرات المعارك المضنية كلما تمكن امثـال الامبراطور اوتون وشارلكان والبرنس اوجين وكوبور وبلوخر وفون كلوك من السيطرة على جسور « الموز » ونقل معسكراتهم الى الاراضي الفلمنكية والوالونية .

واذا كانت البلاد البلجيكية المفتقرة الى العمق ، الخالية من ركن يمكن اللجوء اليه والاعتصام فيه ، واذا كان الشعب البلجيكي المنقسم الى عنصرين مختلفين ولسانين متنافسين ، اجل ، اذا كانت هذه الدولة الناشئة قد عرفت اخيراً ان تقف موقفاً بطولياً ، الا يخشى ان تصرفها غداً اسباب شتى عن التورط وحدها في حرب

---

١) « كونده » هو احد مشاهير القادة الفرنسيين في القرن السابع عشر . و« جوردان » احد القادة الذين لمعوا في القرن التاسع عشر .

الطليعة ؟ واذا نحن اسقطنا من حسابنا عودة دسائس « فران »
كونت دوفلاندر (١ ، ولم نذهب الى حد افتراض جنوح بلجيكا
الى تطبيق خطة « ليوبول » القاضية بترك الطريق حراً والاكتفاء
بتحصين « انفرس » دون سواها من المدن البلجيكية ، فليس ثمة
ما يجيز لنا ان نتوقع قيامها بالمجازفة دون حساب ودون تحفظ كما
فعل البير الاول باسمها . ومهما يكن من امر فيجب الا نتوقع
ابداً من بلجيكا ان تستنزف قواها في حمايتنا .

نعم ، ان فرنسا التي خيبت آمالها سياستها القديمة ، تولي اليوم
وجهها شطر نظام دولي جديد ناشدة الضمانات التي كانت في الماضي
تحصل عليها باساليب تقليدية . انه لحلم فرنسي اسمى ، هذا العالم
المنظم ، حيث تكفل صرامة القوانين واعتدال النزوات ويقظة
رجال الامن الطمأنينة للجميع وصيانة الملكية الفردية .

ان هذا الحلم الجميل يتفق ومصالحنا نحن الذين اتعبتنا المغامرات ،
واصبح لنا من الاراضي والمصانع ما يكفينا ، ومن المستعمرات ما
يفيض عن حاجتنا . ويتفق هذا الحلم ايضاً وحبنا للنظم الشاملة ، هذا
الحب الذي حملنا تباعاً على تأييد السلطة الرومانية والانجيل والقواعد
المدرسية والمبادىء الثورية ، وقد يتفق ايضاً والميل الخاص بنا الى
مد اشرعتنا للرياح التي لا علاقة لها بسفينتنا .

ان الف مبرر عملي او عاطفي تجعل من فرنسا اليوم

---

١) كان حليف اوتون امبراطور المانيا في معركة « بوفين » وقد اسره
الفرنسيون واتي به الى باريس حيث عرض على الناس مكبلا بالسلاسل .

« بنلوب » (١ العمل الدولي . وهذا ما يفسر لنا نشاطها لنسج شبكة حول العالم من المواثيق والبروتوكولات والمعاهدات والصكوك العامة ، ويفسر لنا ايضاً التزامها خطة لائقة اصطلحت على تسميتها « الروح الاوروبي » حيال الآخرين ، لا سيما المهوشين منهم ، وهذا ما يفسر لنا ايضاً وايضاً حرص اكثر سياسيينا على صرف الشعب عن مظاهر الابهة واعمال القوة .

الا ان الايام تتعاقب ونحن لا نلمس اثراً محسوساً لهذه الجهود في تعزيز السلامة الفرنسية . نعم ، استطاع مثلنا الاعلى احياناً ان يظهر « التمثال » بمظهر من تدب فيه الحياة معتمداً في ذلك على الاعتبار الذي خولنا اياه النصر ، وعلى المواهب الشخصية التي تحلى بها رجال دولتنا ، يساعدها ضرب من الورع الانكلوسكسوني . ولكن اين هي الوسائل الشرعية والفعالة التي يمكننا ان نواجه بها العنف ؟

مقابل بعض التأكيدات والاقسام المجردة تقوم المصالح المتباينة والادعاءات اليقظة ، وتظل هذه وتلك غير قابلة التسوية ، اما فهمنا السموح الذي نسرف به ايما اسراف ، فانه لا يقابل بما هو اهل له ، ففي كل مكان تزداد انانية الدول تصلباً ، وينطوي كل شعب

---

١) بنلوب هي زوجة عولوس احد ابطال طرواده في ملحمة هوميروس . ردت خطابها الذين حاولوا الزواج منها في اثناء غياب زوجها ، وكانت تعدهم بان تختار واحداً بينهم عندما تفرغ من صنع نسيج بين يديها . ولكن النسيج ظل بين يديها عشرين سنة لانها كانت تنقض ليلاً ما تنسجه نهاراً .

وترمز هذه الحكاية في الادب الى كل عمل لا يكمل .

على نفسه ، وتتعالى في العالم صيحات الاحتجاج : هذا يشكو اساءة ، وآخر يتظلم ويطلب الانصاف ، وثالث يطالب بما يعده حقاً من حقوقه . وبينا نحن نعلن عزمنا على شجب الحرب يمجد آخرون القوة ويجهرون بضرورة الحنين الى الخطر ويلحفون في طلب السلاح ، انهم يؤلفون ميليشيا وجحافل وفصائل للهجوم .

فماذا اعددنا لدفع خطر هذا السيل الجارف ؟

٣

هذه الامة المعرضة اتراها على حذر في الاقل ؟ هل هي قادرة على حشد قوتها الحربية كلها فوراً ، وعلى تسديد الضربات الصائبة منذ اللحظة الاولى ؟ يجيب عشرون قرناً عن هذه الاسئلة جواباً سلبياً . لقد عرفت فرنسا في مئة نزاع ان تبذل جهوداً جبارة ، بيد ان هذه الجهود كانت تبدأ عديمة الانسجام ، متنافرة ، مضطربة .

ما من شك في ان دمج عدة عناصر قوية في وسط هو اكثر الاوساط ملاءمة قد كون في شعبنا تناسقاً نادراً وثميناً . ففي هذه البلاد ذات المناخ المعتدل ، تتسم كل منطقة من المناطق بطابع خاص بيد انها تكمل جاراتها . ان فرنسا ذات الآفاق المتناسقة والمحاصيل العديدة والطبيعة الغنية بالالوان قد طبعت ساكنيها بطابع الاتزان في الفروقات وبطابع الاتحاد في التنوع . وقد ساهم التاريخ نفسه في ذلك : ساهمت فيه الفتوحات الرومانية باعطائها القبائل الغولية لساناً واحداً وشرائع متماثلة ، وساهمت فيه

النصرانية بحملها الغوليين على تقييد تصرفاتهم بقواعد اخلاقية موحدة . واخيراً جاءت الملكية ، صانعة الوحدة ، فساعدت بدورها على زيادة هذا التراث غير المنقسم الذي تحدى جهوداً طالما رمت الى فصم عراه .

وهكذا رأينا العنصر الفرنسي ، في كل وقت ، ينتفض في الملمات بنشاط خارق ، ويلم شعثه المشتت وينهض في حين يحسبونه في عداد الاموات .

الا ان السهولة التي يتم بها تبادل الافكار والعواطف في شعب قابل للانتشار ولكن كل شيء حوله يضطره للتمركز ، لا تخلو من محذور هو عدم استقرار التأثرات المشتركة . وينشأ عدم الاستقرار هذا عن اندفاع الجماعات في الاستقراء اندفاعاً عصبياً ، اهوج ، سبق ليوليوس قيصر ان لاحظه بقوله : « ان قرارات الغوليين فورية بقدر ماهي مفاجئة » تثب دون ترو ويدركها الوهن بسرعة ، تقبل على التصميم بشغف ولكنها عديمة الصبر لا تعرف معنى الثبات والاستمرار .

تلك هي حالتنا . يدهمنا الخطر فنلتماه بحماسة دون ان نكون مستعدين له ، ولكن أنجابهه من فورنا ككتلة متراصة في الاقل ؟ لا ، فكل فرنسي ضنين باستقلاله الذاتي يشاور نفسه قبل ان يتنازل عنه ، ولا يعقد خنصره وخناصر الآخرين الا اذا اقتنع بضرورة توحيد الكلمة ، ولا يفوته ان يبدي تحفظاته ازاء النظام الرتيبوي .

يضاف الى هذا ان الشعب الفرنسي المتعدد العقائد يهرع الى لقاء الخطر مدججاً بالمبادىء . يخبط في القتال خبط عشواء باذلا نفسه على غير طائل ، مسدداً ببطولة ضرباته الى الجدران ، مادامت العصابة مشدودة على عينيه . فاذا هزم تأبى عليه عزة النفس الاستسلام فينهض ويحزم امره ، عندئذ يجد نفسه وجهاً لوجه امام الحقيقة فينزع عنها برقعها ليضمها ويسودها ويمتلكها ويجني منها كل ما في المجد من لذات .

لا مجال للانكار اننا سوينا بعض مشاكلنا بنجاح للتو والساعة ، فما ان وطئت قدما اوتون (١ الارض الفرنسية حتى الجيء الى الهرب من « بوفين » تحت جنح الظلام . وكانت معارك « الفلاندر » و « الفرانش كونته » في حرب المواريث (٢ مضرب المثل في بعد النظر . وما يزال دوي الصواعق التي كان نابوليون يهزم بها اعداءه يتجاوب الى الآن . ولكن كم وكم من نزاع كبير بدأ في غير مصلحتنا وكان مصيرنا فيه عرضة للخطر ؟ وكم من هزيمة حمقاء جرها علينا الشيطان الاليف الذي جعلنا ، في « كريسي » و « بواتيه » وامام رماة السهام الانكليز والمدافع الانكليزية ،

---

١) اوتون الرابع امبراطور المانيا ١٢٠٩ - ١٢١٨ هزمه فيليب اوغست الفرنسي في معركة بوفين سنة ١٢١٤ .

٢) حرب المواريث هي التي قام بها لويس الرابع عشر على اثر وفاة فيليب الرابع ملك اسبانيا مطالباً باسم زوجته ماري تيريز بالبلاد المنخفضة . وقد اطلق على الحرب المذكورة هذا الاسم لان لويس الرابع عشر اراد بها ان يثبت حق زوجته بارث فيليب الرابع لانها ابنته من زوجته الاولى .

نعهد بالدفاع عن قضيتنا الى اسلحة الفروسية الساذجة . والذي زين لآل « فالوا » الحملات الجنونية في ايطاليا في حين كان ظل شارلكان ينبسط وتترامى اطرافه ، والذي حمل « فرنسا حقوق الانسان » على الوقوف في وجه اوروبا في الوقت الذي بلغ تفسخنا العسكري حده الاقصى .

هذا الشيطان الاليف نفسه هو الذي جعل نابوليون الثالث يعلل النفس ببعث فكرة القوميات في حين كانت بروسيا تشحذ سيفها ، وهو الذي ختم على عقول سياسيينا المسؤولين سنة ١٩١٤ بالاوهام السلمية . اجل ، انه لجميل جداً وحسن جداً ان نجد في تاريخنا امثال « فري » الاكبر (١ وجان دارك ودوغكلان ، وان نقوم بابرع المناورات بعد سان كنتان لنبعد فيليب الثاني الاسباني عن باريس ، وان ننتصر في دينان في حين كنا من الهزيمة قاب قوسين ، وان نلقي الرعب في قلوب البروسيين المنتصرين في فالمي ، وان نضرب بعد معركة سيدان بشطر من السيف ، وان نربح بما يشبه الاعجوبة معركة المارن . الا ان هذه الرجعات الموفقة من شفير الهاوية لا يوازي مجموعها العدد الكبير من الاخطاء الاولية التي جعلت تاريخنا يضج بصيحات رؤسائنا في الشدة والضيق : كالاوامر اليومية القاسية التي صدرت

---

١) هو فلاح من قرية « ريفكور » (الواز) تميز بحربه ضد الانكليز كمساعد للكبتن لالو وكان ذا قوة جبارة ودافع بشجاعة عن قصر لونفيل حيث يقوم اليوم تمثاله . وقد توفي سنة ١٣٥٨ .

عن جوفر وغالياني ، ومناشـدات غامبيتا : « ارفعوا قلوبكم الى فوق » وصيحـات دانتون : « الوطـن في خطـر » وحزن لويس الرابع عشر : « لا سعادة لمن كان في مثل سننا » وكآبة فرنسوا الاول : « فقـدنا كل شيء عـدا الشرف » ودموع جان دارك على « شفقتنا الكبرى » ويأس فيليب السادس ابان فراره : « افتحوا ، هذا ملك فرنسا المنكود الحظ » .

٤

ان فرنسا المشرعة الابواب ، المعرضة للضرب جسدها الاعزل ، والتي لا تنعم بفترة راحة وليس لها من تستجير ، لا يمكنها ان تؤمن سلامتها بغير السلاح . فالسيف ليس فقط عـلة منازعاتها بل هو السند الذي تعتمده في ضعفها . فكل عيب في الارض ، وكل خطل في السياسة ، وكل سقم في الاخلاق ، ليس لدى فرنسا ما تعتاض به عنها اولا وآخراً سوى فن الحرب ومهارة الجيوش والمشاق التي يتجشمها الجنود . وهي اشياء خاصة بها دون سواها . فعظمتنا او سقوطنا يتوقف على حظنا في القتال . ينبغي لفرنسا ، بحكم طبيعتها المادية والمعنوية ، اما ان تكون مسلحة او في عالم العدم . يا لها شريعـة قاسية ، تعارض باستمرار مثلنا الاعلى وتقاليـدنا كأفراد مستقلين ، ويبدو معها كياننا القومي في عذاب عجيب . هـذه الشريعة اكرهت « مازاران » محتقر الجنود على انشاء الجيش الملكي الكبـير ، وجعلت من « سـان جوست » خبيراً في الستراتيجي ، وحملت غامبيتا الى وزارة الحربية ، ودفعت بروشفور الى

صفوف البولنجيين (١ ، واتاحت لكليمنصو في آخر حياته العامة ان يستشعر حماسة القواد .

ان العوامل التي جعلت منا جيلا بعد جيل ، طوعاً او كرهاً ، شعباً عسكرياً ، تفرض هي نفسها على جهازنا الدفاعي الرئيسي طابعاً ثابتاً . يجب ان يكون دفاعنا فورياً ما دامت طبيعة الاشياء تضن علينا في حالة الحرب بمهلة للاستعداد ، وتحول بيننا وبين التراجع ولو مسافة عشرة كيلومترات ، وما دامت خسارة معركة واحدة تضرم النار في باريس وتغرقها في بحر من الدم .

اما اذا هدد الآخرون ، فلديهم متسع من الوقت ليعمدوا الى الابواب فيغلقوها ، ويعلنوا حالة الخطر ، ويعبئوا الامة فوجاً بعد فوج . حرمنا نحن هذه التسهيلات امام عدو جرماني يتقن الاستعداد ويجيد منذ اللحظة الاولى تسديد ضربات في اقصى الشدة ، فتكتيك فريدريك ، وخطة حشد الوحدات الكثيفة التي دشنها مولتكه ، وخطة الالتفاف الكبير التي وضع قواعدها شليفن ، كانت كلها ضربات وقعت في فرنسا وقع الصاعقة . ففي الحرب السبعينية عرفت فرنسا ، وحبر وثائق اعلان الحرب لم يجف بعد ، ان القائد الالماني برنسويك نفذ الى مقاطعة شامبانيا ، وان القائدين الفرنسيين مكماهون وفروسار قد هزما في حين كانت البلاغات الرسمية تقول : « لم يطرأ تبدل على الموقف من نهر السوم الى

---

١) انصار الجنرال بولانجه الذين حاولوا ان يقوموا بانقلاب حكومي في صدر الجمهورية الثالثة .

جبال الفوج .» ولا شك في ان المانيا اليوم ستحشد كل ما لديها من الوسائل العسكرية لتنقض علينا انقضاض الصاعقة ، فيتعين على قسم من جيوشنا والحالة هذه ان يظل يقظاً ومستعداً لنشر كل قواه وتلقي الصدمة الاولى ، مع العلم ان هذه الطليعة التي يتوقف عليها مصير كل شيء لا تجد في طبيعة الارض ما يدعم مجهودها : ممرات ضيقة تصلح لحرب الكمين ، جبال تعمل فيها العصابات ، انهر يغرق فيها العدو ، صيف شديد الوطأة ، فصل كثير الامطار والقائد شتاء . اننا نخوض معاركنا الحاسمة تحت سماء صافية الاديم ، وفي سهل فسيح الارجاء تؤدي اليه طرق معبدة جيداً ، فاذا وقف المدافع موقفاً سلبياً بحتاً يجد نفسه قد اخذ بالمفاجأة وسمر في مكانه والتف حوله ، كما حدث للقائد « فيلروا » في « راميلي » او للقائد « بازين » الذي حوصر في « متز » . اما اذا كان المدافع متحركا ، جسوراً كالمارشال لوكسمبور في موقعة فلوروس او نابوليون في حملات ١٨١٤ ، فانه يندفع الى حيث يجب ان يكون ، ويحتاط للمفاجآت ، وينتزع المبادأة من العدو . هذا الموقف هو الخطة الوحيدة المجدية في مقاتلة الالماني الذي لا تمكن مجاراته في تحقيق ما اعده ، ولكنه يفقد وسائله اذا ضرب ضربة لم يكن يتوقعها ، ويرتبك في معالجة الموقف الجديد .

وعلى هذا لا تمكن تغطية فرنسا الا بحرب المناورة التي تقوم على اليقظة الدائمة ، والحركات السريعة والسرية ، وتنسيق الجهود ، وهذا كله يتطلب جنوداً مدربين تدريباً ممتازاً .

ان الهزائم التي مني بها بعض قواد الثورة الفرنسية وحوكموا من اجلها ، لم تكن ناجمة عن اخطاء هؤلاء القواد ، بل جرها فقدان الانسجام بين الوحدات الفرنسية المقاتلة . وهذه الظاهرة نفسها قد فوتت على فرنسا ما كانت ترجوه على يد كتلة جيوش الجنرال داماد بعد شارلروا (١٩١٤ ــ ١٩١٨) .

لا مجال للانكار ان فرنسا قد حاولت في كل عصورها ان تسد الثغرات المفتوحة في حدودها باقامة الحصون ، وما تنفك دائبة على ذلك الى يومنا هذا ، لان عوامل الضعف في حدودنا ما برحت هي اياها ، وقد اوحت انشاء الحصون لغوبان وسان سير وسيريه ديريفيير ولبانلفه او ماجينو . على انه لا يجوز لنا ان نغالي كثيراً في تقدير قيمة التحصينات الدائمة كدعامة من دعائم المقاومة ؛ فهي محدودة العمق وتتطلب حاميات كافية تسهر على حراستها ، فضلا عن انها تترك المنطقة الشمالية كلها مكشوفة امام العدو .

كيف نتصور مثلا الاثر الذي تحدثه في نفوس المدافعين في داخل الحصون الآلات الحربية الحديثة كالطائرات والدبابات الثقيلة والغازات السامة ؟ يحسن بنا الا نسقط من حسابنا ما قد يصيبهم من تراخ في العزيمة ، لان اقسى الامتحانات الحربية مقدور للجيوش المحاصرة . ذلك ان شعور المحاصر بانه في صميم الخطر ، وعزلته المخيفة واضطراره للعيش بين رفاقه الجرحى ، والتفتت المستمر في القوى التي لا تتجدد ، كل هذا لا يلبث ان يزعزع معنويات الجنود . فاذا اجتمع مثل هذه الارتجاجات والحملة في

مستهلها الى مواجهة النار للمرة الاولى ، فلا يصمد في الميدان الا من توافرت فيه رباطة جأش استثنائية واحتفظ بوعيه كاملا . ومن هنا نشأ اكبار الجماهير لبسالة المدافعين عن الحصون والقلاع ، ومن هنا ايضاً كان الخور الذي انتهت اليه الحاميات الهزيلة . فاذا كان بايار ورفاقه في « ميزيير » ورجال ماسينا في « جنوى » وجنود راب في دانتزيغ ، وكلهم مقاتلون مجربون ومختارون ، قد ادوا خدمات رائعة ، فليس بيننا من لا يذكر ان ثمة وحدات انشئت بسرعة وكان من نتيجة ارتجالها ملء معسكرات العدو بالاسرى ومثول القواد امام مجالس التحقيق .

من الحماقة اذن ان نعتمد في تغطية حدودنا على مناعة حصون يقوم على حراستها جنود ناشئون . فكيف نعوض والحالة هذه ما تكلفنا اياه اخطاء الساعة الاولى التي تنجم عادة عن الطيش والهوس ، ان نحن لم ننشىء جسما مجبولا بطينة خاصة ؟

ان نخبة من القوى المسلحة يمكنها ان تزيل المحاذير الناجمة عن خطأنا في التقدير ، وعن اوهامنا فيما نعتقده في انفسنا وفي الآخرين ، وعن الاضطراب المعنوي والمادي ، وبالجملة عن مظاهر الضعف التي ترافق في الغالب لمسنا للحقيقة . فالنظام ، ومتانة الاعصاب امام المفاجآت ، وتعويد القوات المنتخبة نوعاً من العزلة الطويلة بحيث يصبح فيها طبيعة ثانية ، هي العلاج المضاد لسمومنا الداخلية ، فاوهام السياسة تصبح اقل خطراً اذا قام وراءها قوات

مساحة ساهرة، لا يطغى عليها شطط الرأي العام، لان عزلتها تقوم سداً منيعـاً بينها وبينه . وبفضل تضحيات خدام الوطن هؤلاء يتاح للشعب متسع من الوقت لينفض عنه أثر المفاجأة ويحزم امره . وهكذا يمكن التفرغ لتجنيد المتطوعين وتنظيم الدفاع الوطني او لتعديل خطة الدفاع ، دون ان نواجـه حالات تستدعي صيحات : « لينج كل بنفسه ! » ، « الخيانة الخيانة ! »

وما دامت حالة دفاعنا الاولي سيئة فان نتائجها معروفة سلفاً ، اننا عرضة للغزو بحـكم موقعنا الجغرافي ، وعرضة للمفاجآت ان بمميزات طابعنا الوطني او بمميزات طابع الجيران ، ولا يمكننا ان نعتمد في مواجهة الصدمات الاولى على الدفاع المرتجل الذي تقوم به وحدات يسودها الاضطراب . فقد حان الوقت لان نضيف الى قواتنا الاحتياطية والمجندة ، وهي العنصر الرئيسي في مقاومتنا الوطنية ، اداة مناورة تستطيع العمل دون امهال ، اداة قوتهـا مطردة ، منسجمة ، راسخة القدم في فن القتال .

لن يكون لفرنسا غطاء منيع الا اذا قام فيها جيش محترف .

الفن

١

ان هذه الآلة الرفيقة المسعفة دائماً ، هي التي تسوس مصيرنا في الوقت الحاضر . نعم ، سبق لها منذ فجر التاريخ ان خففت العبء عن كاهل البشر برفعها الاحمال او بجرها اياها ، وطحنها الحبوب ، وتجهيزها المواد ، وبمساهمتها في عمل الحذاق ، الا انها لم تحررهم .

كان هذا العون يدار بصعوبة ويستخدم ببطء ، فالعتلة (المخل) والبكرة والطاحون والمعصرة لم تكن لتدار الا بقوة السواعد وبعرق الجباه ، وهكذا كانت حركاتها الابتدائية لا تأخذ مداها عرضاً وطولا الا اذا ساعدتها في تحركها عضلات الانسان . وقد ظل دور الآلة وشكلها هما اياهما طوال عصور . واخيراً جاء القرن التاسع عشر فقلب العلاقات بين البشر وخدامهم الآليين بطناً لظهر . فقد استطعنا ان نوفر على انفسنا الف جهد جسدي بتجهيز الآلات بقوى مولدة جبارة وبتحسين هيكل الآلة نفسها وزيادة سرعتها .

ان الآلات التي تكسونا وتدفئنا وتضيء بيوتنا وشوارعنا وتنقلنا من مكان الى آخر وتعد غذاءنا وتساعدنا في تشييد المباني وزراعة الارض ، وتسجل افكارنا واصواتنا وصورنا ، قد احدثت في مستوى المعيشة خلال قرن انقلابا اساسياً لم يتحقق طوال ستة آلاف سنة . بيد ان هذه الآلات الخادمة الطيعة قد اخضعتنا في الوقت نفسه لسلطانها .

تسوس الآلة كيان ابناء العصر من كل النواحي . فهي تطبعهم بطابعيها : العجلة والارتباط ، تجمع بينهم وتشتتهم ، تجذبهم اليها او تدفعهم عنها . وفي العلم تفرض الآلة نفسها كموضوع للنظريات أو كأداة للتجربة والاختبار . والفن نفسه في سلم الموسيقى والتماثيل المنحوتة والادب الرائج انما يعكس رجات الآلة وحركاتها المختلفة . حتى العاب التسلية ، وحتى الشهوات تسيطر عليها المحركات والالات .

بيد ان هذه العبودية لا تشل فينا نحن البشر موهبة الاختراع ، لانه وان ترتب على استعمال الآلة الاتيان بحركات آلية (اوتوماتيكية) ففن صنع الآلة آخذ بالتعقد شيئاً فشيئاً والمزاحمة آخذة بالاشتداد . كان المخترع هو الكل في الكل فاصبح الامر شورى بينه وبين الاختصاصي ، فكل عمل اقتصادي يتطلب مجهود عدد كبير من الحذاق ، ولا تكتب الحياة لمشروع ما لم يدخل عليه تحسين مستمر . وليس اغراق الجمهور بالمنتجات الصناعية من العوامل التي تقضي على ذوقه في حسن الاختيار والترتيب . بل

هو على الضد من ذلك يحرك هذا الذوق ويجعله اكثر ولوعاً بها.
فصنع الرياش بالجملة تشكيلات منوعة يقضي على ميل بعض الناس الى الخروج عن القياس في ما يستصنعون من اثاث ، ولكنه يخلق في اكثر البيوت تواضعاً ، ذوقاً ترتيبياً لم يقره آباؤنا قط.

والحرف التي تضع في متناول النساء كميات من الانسجة المبتذلة بدلا من الحرائر النادرة النفيسة ، تثير في نفوسهن هاجساً يدفعهن الى التفنن في زينتهن تفنناً عصرياً ، فيأتي هندامهن مغرياً يسترعي الانظار .

وفي ايامنا هذه تقود يد واحدة اربعين حصاناً تسير مئة كيلومتر في الساعة ، ولكن نظام السير يتطلب من المارة ومن محافظي المدن يقظة وانتباهاً وصفاء ذهن .

وبينا تفرغ الآلة النشاط البشري في هذا القالب الجديد ، يتسم النظام العسكري بالطابع نفسه . الا ان الاختبارات في الحرب لا تعرف الاستمرار ، فهي تنقطع او تتبدل تبدلا تاماً . بيد ان سلاحاً جديداً يلتصق بالجيوش بين الازمة والاخرى . وكان من نتيجة التصاق الآلة بالجيوش ان ما كان الوف المقاتلين لقرن مضى يتوصلون الى تحقيقه بعد لأي تحققه اليوم بضع آلات دون عناء كبير.
في «معركة الاهرام» تجمع مربع كامل ليطلق الفي رصاصة في الدقيقة فوهو عمل تقوم به اليوم ثلاثة مدافع رشاشة ويكون مدى الطلق الناري اطول عشرة اضعاف من مدى طلقات رماة « الاهرام » .

كان الطراد «بوسنتور» اذ يتحرك يحتاج الى سواعد ثلاثمئة

بحار يعالجون اشرعته . اما اليوم فالطراد لورين يقوم بالعمل نفسه ولا يحتاج الى اكثر من رجل امام الدفة وآخر امام المحركات . وتستطيع طائرة حديثة ان تستكشف في ساعة من احوال العدو ما كانت تعجز عن استكشافه في يوم بكامله خيالة « مورا »(١) مجتمعة . واذا كان عشرون ساعياً لم يكفوا للاتيان بالجنرال غروشي الى ميدان القتال في واترلو ، فاجهزة الراديو توجه اليوم الجيوش والاساطيل بسرعة خارقة .

ولكن المحاربين وضعوا انفسهم تحت رحمة العتاد الحربي باشراكهم اياه في العمل على هذا النطاق الواسع ، واصبحت بعد الآن قيمهم وفضائلهم قصيرة الباع ان هي لم تقترن بالآلة وتستخدمها . ولم تبق الحرب مسألة اظهار قوة الساعد بل اصبحت مسألة التفنن في استعمال انبوب وصندوق وشيء طائر .

كان قوام الجيوش في الماضي رجال متضامنون ، توخي في تنظيمهم تجانس العضلات والقلوب على قدر الامكان . اما اليوم فالجيوش آلات متضامنة ووحدات نيط بها خدمة الآلات ، فاذا التوت الادوات التي ترتكز عليها العمليات الحربية ينفرط عقد القوة العسكرية في الحال . وكما يشل مصنع من المصانع بمجرد انقطاع سير من سيور المحركات تخرس البطاريات بمجرد انهيار مركز المراقبة فيها . ويسقط في يد قائد الفرقة اذا انقطعت

---

١) هو الامير مورا احد مشاهير القادة في عهد نابوليون .

الخطوط كما يسقط في يد صاحب المصرف اذا حرم من آلة التلفون .

وقد ادى التصاق الفن العسكري بالآلة هذا الالتصاق الشديد الى ازدياده تعقداً وتغذيته بمحاولات منوعة . فهو بدلاً من ان يكتفي ، كما كانت الحال في الماضي ، باستخدام بعض الاسلحة والآلات والمركبات ، يضم اليوم عدداً لا يحصى من ادوات القتال . فقد تولت الحربة والسيف ثم المدفع والبندقية تقرير مصير العالم احقاباً طويلة من الزمن . وكان نظر الاسكندر الحاد ، وعين هنيبعل الوحيدة ، ومنظار ناپوليون تكتشف ما هو جوهري في ميادين القتال . وكانت الجيوش تناور بنظام تام لدى سماعها قرع الطبول او اصواتاً حسنة الوقع او بواسطة شارات ودلائل معينة ، وعند الحاجة بواسطة ريشة الملك البيضاء .

وفي يومنا هذا يلزم المشاة خمسة عشر نوعاً من انواع السلاح ، والمدفعية ثمانية وستون نموذجاً من القطع المختلفة ، والهندسة ست عشرة وحدة منوعة . واحتلت الطائرة والمنطاد والغازات والدبابة امكنتها في هذا الجوق واصبح اتفه العمليات يحتاج الى قياسات وصور وتصاميم ، اما الاتصال فيعد غير مرضٍ ان لم تؤمنه شبكة من الاسلاك او موجات الاثير .

وكلما ازدادت هذه الآلات إحكاماً ودقة تطلبت ادارتها واستعمالها تخصصاً ومهارة . فالمدفع الرشاش يقذف في ثوانٍ عدداً كبيراً من الطلقات ضمن دائرة ضيقة ويكون لطلقاته مفعولها العظيم اذا احسن الرامي التسديد ، والعكس بالعكس . ويستطيع المراقب

ان يستكشف من طائرته عملية ما دون ان يفوته شيء من دقائقها ، فان هو اخطأ ترتب على خطأه عواقب خطيرة . تغطس الغواصة تحت الماء في ثلاثين ثانيـة بفضل جهاز عجيب ، فاذا لم يحسن الرجل المختص استعمال الجهـاز تذهب الغواصة الى الاعماق . وقد فقدت الادوات الحربية في ايامنا هـذه استقلالهـا الذاتي الى حـد ما ، بحيث لم يبق في الامكان استعمال سلاح من الاسلحة بجدوى ما لم يتعاون والاسلحة الاخرى . كان الرماة في جيش نابوليون يلقمون سلاحهم الناري ويطلقون النـار تنفيذاً لاوامر الرؤساء وتقف مهمتهم عند هذا الحد . اما اليوم فاستعمال البندقية الاوتوماتيكية لا يؤتي ثماره المرجوة بتلقيمها واطلاقها ، بل يتعين على الرماة بالبنادق الاوتوماتيكية ان يحسنوا الافادة من الارض واللجوء الى اساليب التمويه المنوعة والسير والترقب والقتال في الليل ، وتقدير المسافات وتبادل الاشارات المتفق عليها مع الجيران ، وان يستخدموا عند الحـاجة البوصلة والمنظـار والخريطة ، وان يحملوا القنـاع الواقي ويستعملوا المعول والرفش والفأس ، ويألفوا تقلبات الظروف . فالجيش ، من اكبر قائد الى الجندي العادي ، خاضع لسنة الارتقاء ، وكل تحسن يطرأ على الجيش فتزداد معه قوة افراده يضاعف الجهد المطلوب اليهم القيام به .

ترى ايقف العـالم عند حـد في تطوره الجنوني هـذا ؟ كل الامارات تدل على ان التطور سيستمر . نعم ، لا يخلو الامر من حركات مقاومة لهذا التحول السريع ، وكل ما في الانسان من

غرائز محافظة تنتفض لاعنة اياه ، فقد قام فريق من العمال واصحاب الاعمال والاقتصاديين يشجب تقدم الآلة المطرد ، وراح فريق من العسكريين من مختلف الرتب ، يتبرم بالتغييرات التي ادخلت على الادوات الحربية التي الفوا استعمالها . وها هي المؤتمرات الدولية والندوات البرلمانية تضج بالخطب الرنانة ضد تقدم الصناعة الحربية . ولكن لا قيمة لهذه الاعتراضات كلها ، فالآلة تريد ان تماشي الزمن ولن يقف حائل في طريقها .

ان احوال المعيشة المقررة التي عرفها آباؤنا والتي كان بمقتضاها بورجوازي سنة ١٨٣٠ مثلاً يستعمل لسكناه وهندامه واثاثه ووسائل النور والتدفئة الخ ... الاشياء نفسها التي استعملها اجداده من قبل ، ان احوال المعيشة المقررة او المحددة هذه يكاد ابناء الجيل الحالي يكونون خالي الذهن من اية فكرة عنها ، فالمنازل والثياب والعربات ومصابيح النور واجهزة الراديو الخ ... اشياء تفقد جدتها في نظرهم من يوم الى يوم . وما يقال في الاشياء التي يستعملها المدنيون ينطبق على الاشياء ذات الصلة بالقوى المسلحة . فقد طرأ على قوة السلاح تبدل جوهري خطير خلال الاعوام التي عقبت هدنة ١٩١٨ . من هذا ان كثافة نيران سرية فرنسية المشاة هي اليوم ضعفا ما كانت عليه في الحرب الكبرى . وكم تبدو مسكينة طائرات النصر ازاء نماذج الطائرات الحديثة ! وكم يبدو الفارق عظيماً بين دوارع معركة جتلند والدارعة « دنكرك » التي تبنيها ترساناتنا ! ولولا حرمة المجد والنصر الذي احرزناه في

المارن لما كنا نتمالك انفسنا من الضحك اذ نرى اليوم السيارات التي استخدمت في تلك المعركة .

وبديهي ان تتطلب الملابسات الحديثة للعمليات العسكرية محاربين مهرة ذوي خبرة فنية متزايدة ، وان يتطلب العتاد الذي لا مندوحة عن تجهيز الجيش به ، موهبة خاصة وميلا صريحاً واستمراراً في خدمته ، وهي حالة طبيعية فرضها التطور فرضاً كما فرض النور الكهربائي الاستغناء عن الشموع .

لقد دقت ساعة الجنود المنخوبين والوحدات المختارة .

٣

ان التحول الذي طرأ على الجيوش بتأثير الميكانيك يصطدم والقواعد والتعاليم التي فرضتها في الماضي احوال تختلف عن الاحوال الحاضرة اختلافاً بيناً ، ويجد في المؤسسات العسكرية شرائع وعادات وافكاراً لا يأتلف بعضها واياه بحال من الاحوال . ان الكمية ما تنفك اساس التنظيم والفن العسكريين ، شئنا ام ابينا ، وقد جعلت اساساً لها في اواخر القرن الثامن عشر ، وسندتها مذ ذاك نظريات سياسية متحمسة وكرستها محن عظمى ، ولا جدال في ان نظام الحكم السابق الذي نشط في كل النواحي للقضاء على الهرج والمرج الذي تميزت به القرون الوسطى ، قد عرف كيف يقيم القوة على اسس معقولة وان يتبع بوسائل محدودة سياسة قائمة على حساب دقيق . ومع هذا رأينا فرنسا الثورية تلجأ الى تعبية كل القادرين على حمل السلاح لان الانجيل الذي قامت تبشر به

ألب ضدها اوروبا كلها . ورأينا نابوليون ينسج على منوال رجال الثورة ليتسنى له ان يسود القارة كلها . ولجأت بروسيا بسمرك وورون الى الاسلوب نفسه عندما قررت بسط سيطرتها على اوروبا . وما عتمت سائر الشعوب ، وقد اقلقها هذا التطور ، ان نظمت نفسها بحيث تعين على كل مواطن سليم ان يخدم العلم في السلم مدة معينة من الزمن وان يحمل السلاح ويخوض غمرات القتال كلما خاضت بلاده حرباً .

ولا بد من الملاحظة ان هذه الضريبة ، ضريبة الوقت واحياناً ضريبة الدم ، كانت تتفق اتفاقاً تاماً وميل العالم العتيق الى المساواة والاخذ بالمبادىء الديموقراطية على علاتها . كان إرداف الجهاز العسكري الى الظهر المفروض على المجندين دون استثناء مما يرضي الحنين العام الى المساواة .

وكان من نتائج التوتر الذي عقب معاهدة فرنكفورت ان عمد معظم شعوب القارة الى تجنيد طبقات بكاملها واعداد الاحتياطي . وهو تدبير ذو تكاليف باهظة ولكنه قابل التطبيق ما دام المواطنون يقبلون على الخدمة مدة ثلاث سنين وما دام السلاح قاصراً على طراز معين يحمل بسهولة ، وعلى نوع واحد من المدفعية . كان هذا في عصر البنادق العادية والمدافع المرتدة ، وكان هذان السلاحان كافيين لتسهيل عملية الرمي ، لهذا كان تدريب المجندين غاية في السهولة يستمر سنة بعد سنة على وتيرة واحدة ، اما الوحدات القوية والمتجانسة فكانت تألف بسرعة تمارين القتال

المعدة للالتحامات الكبرى .

الا ان العناية التي لقيتها الكمية لم تحل دون نشر فضائل النوع . فالجحافل الثورية التي كلفتها الاوهام غالياً لم تجد توازنها الا بعد اندماجها باشتات « الفيلق القديم » . والجيش الاكبر الذي افرنقع امامه من اولم حتى فريدلند جنود الاعداء كافة كان يتألف معظمه من رجال متجانسين . وعندما طغى المجندون الذين عبئوا دون تمييز ودربوا بعجلة على المحاربين المجربين زال التجانس من الوجود واخفقت المناورات البارعة عند التنفيذ .

وجاءت الخدمة العسكرية الطويلة الامد فجهزت فرنسا بين ١٨١٨ و ١٨٧٠ بجنود ممتازين ما عرفت قط افضل منهم ، وقد تجلت مؤهلاتهم في حملات افريقيا والقرم وايطاليا . واذا كان الجيش الفرنسي قد انتهى الى مصير مؤسف فيرجع هذا الى عدم كفاءة القواد ، اما هو فقد اثبت فضائله العسكرية في احرج الظروف . ففي شهر آب سنة ١٨٧٠ قتل الجيش الفرنسي وجرح ٥٨ الفاً من الالمان ولم يفقد هو سوى ٤٩ الف رجل ، وقد فاجأه رؤساؤه بالقاء السلاح مع انه كان سليما في مجموعه .

وتجلي تفوق القوى الجيدة باجلى مظاهره ابان الحرب الماضية ، وقامت شاهداً عليه المدافن العديدة التي امتلأت بجثث القتلى . والا كيف نفسر الانتصارات المتتابعة التي احرزها الالمان ضد عدة خصوم تألبوا ضدهم ؟ فقد الالمان خلال سني الحرب الاربع ١٧٠٠٠٠٠ رجل وقتلوا هم من خصومهم ٣٢٠٠٠٠٠ ، واخذ

الحلفاء ٧٥٠ الف اسير الماني في حين اسر الالمان ١٩٠٠٠٠٠ من جنود الحلفاء . الا يدل هذا على ان الجيوش الالمانية كانت احسن تدريباً من جيوش الامم المتحالفة ؟

يعرف المطلعون الفرق الذي كان قائماً في الجيش الواحد بين وحدة واخرى . ولم ينس الذين شهدوا المعارك الاخيرة تلك النخبة الكثيرة الصلف ، تمشي الى القتال وقد عركها الدهر لتقوم بالمجهود الاكبر .

استعاد العدد اهميته كاملة بعد ان وضعت الحرب اوزارها بالرغم من الامثولات التي حتمت التقليل من هذه الاهمية . وقد رأيناه يسيطر سيطرة تامة على اعادة سبك مؤسساتنا العسكرية ، ووجدت هذه الحالة مبرراً لها في الانتصار الذي عزوناه الى تفوقنا العددي وفي بساطة النظام القديم وسهولة تطبيقه .

ولكن عيوب هذا النظام تبدو شيئاً فشيئاً مع كر الايام . فالخدمة العسكرية هي اليوم في نظر الجمهور الفرنسي عبء ثقيل . وما كان الفرنسيون يقبلونه في الماضي والخطر الداهم على الابواب ، اصبحوا يتبرمون به بعد احراز النصر . يضاف الى هذا ان كل ما يذكر الناس بالقتال اصبح يسبب لهم ازعاجاً ، وهو رد فعل طبيعي ضد التوسع في استعمال السلاح .

ان الحياة تجري مجراها بسرعة ، ويرى البعض ان الوقت الذي يقضيه في الثكنات هو وقت ضائع سدى . وسرعان ما تتخذ هذه النزعات الابتدائية شكل عقائد يتغذى بها محبو الجدل من رجال

المنابر ، وقد يقوم فريق منهم غداً فيقول بعقم التنشئة العسكرية ما دامت الامة كلها تقاتل في عصرنا هذا ، وما دام مجرد نهوض الشعب يعطيه القوة والمهارة ويحليه باعظم الفضائل الحربية . فما الفائدة والحالة هذه من حشد قوات دائمة وسلخ الناس عن اعمالهم ومحيطهم لتلقى في اذهانهم اشياء لا تتخلل مجرى الحياة العادي ؟ وقد يشتط هذا الفريق فيذهب ابعد من هذا محاولا ان يدخل في روع الملأ ان امة غير مدربة على القتال تستطيع ان تقاتل بجدوى اكثر منها وهي مدربة كما استطاع « اميل » (١ ان يتعلم بسهولة لانه لم يتلق دروساً .

وفضلا عن هذا اضطر القائمون على التشريع عندنا تحت ضغط صاخب الى تقصير اجل الخدمة الفعلية . ففي اقل من عشر سنوات خفضت المدة من ثلاث سنين الى سنة واحـدة وقد بدأوا يلغطون بامكان تخفيضها الى ثمانية اشهر بانتظار تقدم البعض باقتراحات ترمي الى جعلها ستة او اربعة اشهر . فاذا فرضنا ان المجندين الذين يدعون كل سنة للخدمة في كراديسهم توصلوا باعجوبة الى اتقان استعمال اسلحتهم فكيف يمكن ان نجعل منهم ارباب اختصاص في القتال ؟ واي تدريب هـذا الذي يخضع له الجندي خلال اربعة وعشرين اسبوعاً تدخل فيها المهل الممنوحة للتسجيل وللتحرر من الخدمة والاعياد والمأذونيات ، والاجازات المرضية والتدابير الصحية ، وحالات القرف ، مع العلم انه ينشأ في جيش المشاة رماة بالمدافع

---

١) بطل كتاب لجان جاك روسو في التربية .

الرشاشة وبالبنادق ، وحملة رمانات (قذائف يدوية) وطيارون ، وسائقو آلات المواكبة ، وممهدو طرق مراقبون ، واختصاصيون في المواصلات الهاتفيـة والبرقية واستعمال اجهزة الراديو ، ويجتهد المدربون في ان يكون هؤلاء واولئك قادرين على تبادل المهام قدر المستطاع ، وان يألفوا العمل الاجمالي . اجل ، اي تدريب هـذا الذي يخضع له الجندي خلال ٢٤ اسبوعاً ما دامت تنشئة فريق بسيط لكرة القدم تتطلب العناية نفسها والمجهود ذاته ؟

ان فيالقنا بحالتها الحاضرة هي والحق يقال اشبه شيء بوجوه لعبة الورق التي تبسط وتهزم باستمرار . ذلك انها حضائر موقوتة مـا تكاد تجتمع حتى تتفرق ايدي سبا . وبدلا من ان يقوم عنـدنا نشاط منظم فيخرج افضل النتـائج من آلات الحرب التي ادخلت عليها تحسينات مطردة ، لا نجد امامنا سوى تصاميم مسلوقة سلقاً . ولما كانت الرئاسة التي الفها المحاربون القدماء قد اوشكت ان تزول من ملاك الاحتياطي ، فوحداتنا المعبأة لن تستطيع ان تقبض على عنان المهارة الاجماليـة التي يتطلبها العتاد الحديث الا بعـد مران طويـل . ويكفي ان نلقي نظرة على كوم الاسلحـة والآلات والاجهزة والمركبـات والذخائر الخ ... المكدسة في المستودعـات والمعدة لاستعمال احدى الوحدات الخاضعة للتدريب ، وان نتمثـل فيضاً من الناس لا خبرة لهم ولا تناسق بينهم يستعملون هـذه الاعتدة بين ليلة وضحاهـا ، كي ندرك مدى التبذير الهـائل في الرجال والعتاد الذي يسببه هذا الارتجال .

وبديهي ان تصطدم القواعد الموضوعة لاستعمال الاسلحة الآلية وتعارض الميكانيك مع نظرية الكمية وان تقلب قواعد الفن العسكري رأساً على عقب . ذلك ان النظريات العسكرية تساير هي ايضاً تيارات العصر وتتشبع بفكرة الميكانيك . ويعود الى اساتذة التكتيك في عصرنا هذا تجديد الاساليب القديمة في حقل المناورة ، معتمدين كل ما تمتاز به الآلات الحديثة من قوة ودقة وسرعة .

وفي هذا الحقل ، من الناحية الفنية ، مجال واسع للاختبار الخصب ، وفيه ايضاً ترضية للفكر قائمة في طبع العمل العسكري بالطابع الاقتصادي والعلمي الذي يتميز به العصر . الا ان هذه الجهود كلها ترتكز على افتراض امكان حشد اكبر عدد ممكن من الرجال .

انها لثقة مؤثرة هذه التي تتجلى بالرغبة في اهمال شأن الواقع لمصلحة ما يتمناه الانسان ، وفي السعي وراء المثل الاعلى . ولكنها ثقة خطرة لانها تدفع صاحبها في حقل الفن الى القيام بانشاآت نظرية يعوزها الاساس . لهذا نرى ، في كثير من الاحيان ، القواد على اختلاف درجاتهم يقومون باعمال مستوحاة من مبادىء تكتيكية لا يمكن تطبيقها بواسطة الآلة المعدة لهذا الغرض . ونرى الجنود من جهة اخرى يحاولون عبثاً احراز المهارة الفنية والثبات الضروريين للقيام بالمناورة على الوجه الاكمل ، ويعود اخفاقهم في هذا الى قصر الوقت وضيق المجال .

ان الضعف او الحالة السيئة التي يشكو منها الجيش في ايامنا

هذه تجد تفسيرها في العوامل التي تقدم ذكرها ، وفي مقدمتها هذا التعارض بين المهام المطلوب اداؤها والنظام العسكري القائم . فالعسكريون ، قواداً كانوا او انفاراً ، يشعر كل واحد منهم انه مدعو الى حل مسألة مستحيلة الحل . فالقيادة لا تجهل انها مدعوة يوماً لان تواجه طلائع النزاع المسلح بجيش انشىء تنشئة بطيئة ، مع ان ظروف فرنسا الجغرافية والسياسية والاقتصادية والمعنوية تحرمها من كل مهلة وتضيق امامها المجال وتحتم عليها اعتماد ستراتيجية الحركة والسرعة . والمدربون الذين ينسجون على نول « بينلوب » والذين يدفعون من ثكنة الى اخرى القوات التي تختفي بسرعة ، يشعرون بخيبة مريرة وهم يودعون رجالا كان اجتماعهم بهم قصير الامد . يضاف الى هذا ملاكات احتياطي تتدرب نظريا اما لانعدام القوات او لانعدام القيادة في حال وجود القوات . وجنود لا يخرجون البتة من مرحلة التتلمذ ، ضائعون بين عشرين مهمة ، يذهلهم عدد من الآلات لا حصر له ، ويحد ارتباكهم من قوة هذه الآلات ، ولا يتاح لهم ، خلال المدة التي يقضونها متمرنين ، ان يعرفوا في الاقل ما ينبغي لهم ان يتعلموه كي يحسنوا استعمال السلاح .

ان المظاهر الخداعة تستر حقيقة هذا الجيش المنتحب المتأوه . ولكن ميل شبابنا المتخصص والرياضي الى كل ما هو واضح وكامل وجامع هيهات ان يجد غذاء له في هيكل محكوم عليه

حكما مؤبداً .

ولا مفر من الاعتراف بان انعدام التوازن هذا يسيء الى نفوذ القوة المسلحة في اوساط الرأي العام ، لان القوة لا تستطيع ان تحتفظ بمكانتها ما لم تكن مشتملة على عناصر مشجعة ومطمئنة . فالعملاق يوحي الرهبة ما دام منتصباً على قدميه ، ولكنه يصبح مثاراً للهزؤ اذا تخاذلت ركبتاه وترنح . والجمهور المتنور يمكنه ان يتبين بسهولة نواحي الضعف في القوى المسلحة : قوات يدعو منظرها وحالتها الى السخرية ، تنقل باستمرار ، رجالا وعتاداً ، من مكان الى آخر لتوزيعها على عدد كبير من الوحدات التي تعد نواة التشكيلات الحربية ، يضاف الى هذا بزات عسكرية ذات مظهر قاتم وثكنات كئيبة ، ورجال لا يفتر لهم ثغر عن ابتسامة .

يرى الجمهور هذا كله فيشعر ان في الصفوف نقصاً ما ، ويفقد الجيش بعض بهائه وسط هذه المجموعة الكئيبة حيث تظل جهوده مغمورة .

ولكن اذا كان مبدأ العدد ما ينفك يقوم حائلا دون تحقيق اصلاحات اساسية ، فالتخصص يتسلل الى الجيش دون ما ضجة ، وتعمل الضرورة عملها خلف زخرف المؤسسات ، وها هو مبدأ النوع او الجودة يحل محل مبدأ العدد في اكثر من فرع من فروع القوة المسلحة . فمن كل بحريين ملحقين ببارجة فرنسية ، يعمل بحار بصفته محترفاً ، واختير الآخر بين ارباب الحرف . ولا يضم الطيران ، الا في بعض الحالات ، سوى رجال كرسوا انفسهم

له . ولا تضم قوات ما وراء البحار سوى رجال انخرطوا لاجل طويل الامد بالنسبة الى مدة الخدمة المقررة . وكم هو جميل ان نسمع وزراء البحرية والطيران والمستعمرات يرفضون في جنيف وفي باريس فكرة تقصير مدة الخدمة في القوى التابعة لوزاراتهم !

ولا يقف الاختصاص عند هذا الحد . فبوليس الدولة يتقن حرفته ويقصر نشاطه عليها ، ولا يشذ عن هذا الاطفائيون الذين كانوا في الماضي ميليشيا بسيطة ، فاصبحوا اليوم ، وفي كل مكان ، وحدة فنية .

ولو اننا اعتمدنا في الدفاع عن الاراضي الفرنسية على نظام الوحدات المسرحة قبل ان يكتمل تدريبها وعلى سيل الجحافل المرتجلة كلما دعت الحاجة اليها ، فلن يجرؤ امرؤ على القول ببقاء هذا القديم على حاله دون ان يطالب في الوقت نفسه بملاكات مطردة القوة واكثر متانة . والواقع ان هذه الملاكات آخذة بالنمو ، وقد أضحى عددها مضاعفاً في عشرين سنة . ان ربع مليون فرنسي يجعلون اليوم حمل السلاح حرفة لهم ، ويمكن القول ان الجيش الحرفوي او المحترف قائم فعلاً في البحر والجو . اما في البر فالعناصر متوافرة ولكنها مشتتة ،ضائعة في المجموع ، غير ان الرقي الفني الجديد سيدفع بها الى انشاء وحدة ممتازة .

ها هي الدرع تعود الى الظهور يجرها المحرك ...

٣

سيطرت الدرع او الزرد على ميادين القتال منذ ان علم

« فولكان » البشر فن اصطناع الحديد حتى العهد الحديث .
وليس ادعى الى تقوية معنويات المرء من اعتقاده انه محمي جيداً ،
وهذا الاعتقاد هو في الجيوش لحمة تشد الجنود بعضهم الى بعض .
وكانت الغلبة في العهود البعيدة للشعب الصناعي الذي تتيح له ثروته
ان يجهز محاربيه بالنحاس الاحمر الممتاز . وهذا ما يفسر لنا التفوق
العسكري عند الاشوريين والفرس ثم عند اليونانيين والرومانيين .
يقول المثل : هذا السيف يوازي ذاك . وهذا صحيح . ولكن
الجنود المعتمرين بالخوذ والمدرعين بالزرد والمجن والذين يقاتلون صفوفا
متراصة ، كانوا في موقف ممتاز بالنسبة الى البربر الذين كان
جهازهم الحربي يتألف من الخشب والجلد ، وكانوا يخوضون المعركة
متفرقين لا رابطة تجمع بينهم .

وتطور القتال مع الزمن فاستوى الفرسان على متون جياد
تمنطقت بالحديد ، وغرقوا هم في عدتهم الثقيلة ، وراحوا يفرضون
قوتهم ومشيئتهم على القوات الراجلة ، واصبح مصير المعركة ومصير
المشاة انفسهم بين ايدي الاسياد المدرعين الذين كان يقينهم بمناعة
عدتهم الحربية وباستحالة اختراق دروعهم ، يشجعهم على اقتحام
المخاطر ويزيدهم اندفاعاً واستهانة بالموت .

وجاء السلاح الناري فوضع حداً لامتيازات الفرسان المدرعين ،
وكان الطاق الذي سحق اضلاع القائد « بايار » في معركة
« رومانيانو » رمزاً دامياً . وقد دافعت العدة عن نفسها زمناً
طويلا مستنجدة باجود انواع الصلب المصقول . ولكن تقدم

السلاح الناري قد فرض على حملة الدروع جعل العدة سميكة ، ثقيلة الوزن ، ومع هذا لم يتخل المحاربون عن هذا الجهاز الواقي ، الا ان معظمهم صار يكتفي بدرع تغطي اعلى الصدر ، وقد شوهدت الخيالة المدرعة سنة ١٩١٥ ، واعتمدت الخوذة غطاء للرأس في القرن السادس عشر ، ولكن استعمالها كان مقصوراً على فيالق معينة ، اما في الحرب العظمى فقد كان استعمالها عاماً .
وظهر المجن او الترس للمرة الاخيرة إبان حصار سباستيبول في منتصف القرن التاسع عشر .

بيد ان هذه الاجهزة التي انحصرت فائدتها ، بعد اختراع السلاح الناري ، بتقوية معنويات حامليها ، لم تحل خلال القرون الاربعة الاخيرة ، بين الطلقات النارية والقذائف وبين تمزيق اجساد المحاربين كلما وجدوا على ارض مكشوفة ولم يتح لهم ركن يلجأون اليه .

اليس هذا امتحاناً قاسياً لغريزة حب البقاء في الانسان ؟ ان عجز الدرع امام السلاح الناري لم يترك له وسيلة يفزع اليها اللهم الا الاختباء في وكر أو خندق ، وفي هذا ما فيه من اضعاف للمعنويات وقضاء على الشجاعة والجسارة .

ولكن ها هو المحرك قد ظهر ، ان تحت غطائه المتواضع لقوة عظيمة مستعدة لان تجر اثقل الاحمال باقصى سرعة . الا ان تأثيره قد انحصر بتكييف الخطط الستراتيجية ايام كان يسيره البخار ويشتمل على آلات ضخمة ، ويحتاج الى خطوط تمد في الارض

ليستطيع الانتقال من مكان الى آخر . فبدونه لم تكن عمليات الحشد والتموين مستطاعة ، بيد انه كان يقف عند اطراف ساحات القتال ، ولم يدخلها الا عندما حل البنزين في تسييره محل البخار ، فحرره السائل الملتهب من الآلات الضخمة واغناه عن الخطوط الحديدية التي ما كان ليسير بدونها .

وكان من نتيجة هذا التطور ان اصبحت المؤخرة ملكاً للمحرك ، واصبح منوطاً به كل ما يمكن نقله : المؤن والاعتدة والاحتياطي . وما عتم ان ظهر في المقدمة دافعاً الى الامام السيارات والمركبات والعربات حيث تتاح له الطرق وتفسح امامه المجال حركات الجيوش . على ان ضعفه واستحالة اخفائه عن العيان قد اقعداه عن دعم العمليات الحربية ، فاكتفى باداء مهام الخدمة .

ولكن ها هو يطلع علينا مدرعاً ، يدب على سلاسل ويحمل مدافع عادية واخرى رشاشة ، زاحفاً في الطليعة ، مجتازاً المنحدرات والمهاوى ، ساحقاً الخنادق والاسلاك . ان الدبابة التي تبدو لاول وهلة مترددة ومرتبكة قد قلبت فن التكتيك رأساً على عقب . فبها بعثت المناورة في ادق تفاصيلها ما دامت الدبابة تستطيع ان تجابه النار في القلب والجناحين ، وان تتقدم باصقة الحمم ، مبدلة اتجاهها كما تشاء . وبها ايضاً يجد بعض الحضائر المقاتلة الحماية المتحركة التي كان قد خيل لنا انها فقدت الى الابد .

وتجدر الاشارة الى ان دبابات اليوم التي يمكنها ان تثبت

وجودها في كل مكان هي غير دبابات الامس التي لم تكن دائماً عند حسن الظن بها . فالدبابة الحديثة تحمل ثلاثة او اربعة جنود لا تطالهم وهم تحت الفولاذ الا قنابل من عيارات متوسطة او ضخمة . ويمكنهم ان يجوبوا منطقة القتال طولا وعرضاً وبسرعة يمكن ان يبلغ معدلها في الساعة اربعين كيلومتراً ، مطلقين النار في كل الاتجاهات .

يكون جنود الدبابات بمأمن من الغاز في ملاجئهم المعدنية ، وفي وسعهم ان يتواروا خلف غيوم اصطناعية ، وان يتصلوا بالمؤخرة والجيران والطائرات بواسطة الراديو . انهم محاربون من طبقة خاصة تحرروا من القيود التي تغل القوات الراجلة وتسحقها تحت ثقلها . واذا كان هذا لا يعني انهم بمأمن من كل خطر فهم في الاقل في مركز منيع بالنسبة الى الجنود الذين لا يحميهم شيء ضد القذائف والرصاص .

هذه الميزات مضافة الى القوة تجعل من الدبابة العنصر الرئيسي في المناورة ، وتحتم بالتالي انشاء جيش مختار . كان « بيروس » يدقق في اختيار الفرسان الذين يمتطون متون الفيلة ، ومثله داريوس في اختيار حوذيي دباباته الزائفة . وقد ساهم النظام الاجتماعي في القرون الوسطى في جعل الفرسان اقوى المحاربين واطولهم باعاً . ولا ريب في ان دوارع البر الحديثة تتطلب هي ايضاً التدقيق في اختيار الرجال وتدريبهم على العمل المشترك تدريباً كافياً .

ان التطور الذي اقتضاه الميكانيك يعيد الى النوع الاهمية التي كانت له بالنسبة الى العدد والتي فقدها في وقت ما . واصبح من الامور المقررة وجوب انشاء وحدات مختارة في البر والبحر والجو تستخدم على اوسع نطاق سلاحاً قوياً ومنوعاً ويكون لها التفوق الساحق على سائر الوحدات المسلحة . عندئذ يتاح لنا ان نشهد ، على حد قول « بول فاليري » ، نشاط عدد محدود من الرجال المختارين ، يعملون افواجاً وتتحقق على ايديهم حوادث مدهشة في مدة تراوح بين بضع ثوان وساعة وفي مكان لم يخطر لنا في بال .

نعم ، قد يكون لهذه الافضلية طابعها الموقوت . فالعناصر ذات الاختصاص تفقد سيطرتها شيئاً فشيئاً كلما بدا سواد الجيش اكثر ميلا الى التنظيم واظهر رغبة في التعلم تتفق وما تتطلبه الالة من اجتهاد ونشاط . ولكن السيطرة باقية للمحترفين اصحاب الاختصاص في طائراتهم وسفنهم ودباباتهم مدة تراوح بين الطول والقصر تبعاً لازدياد عدد الوسائل الآلية وتعقدها واتساع دائرة عملها .

السياسة

١

التماسك قائم في كل شيء . فالضرورة الفنية التي تدفع بالنظام العسكري نحو الجيش المحترف ، تتفق ونزعات اخرى ذات صلة بهذا التطور . ذلك انه يقوم بين القضايا البشرية نوع من الانسجام الغامض يجعل نواحي النشاط المختلفة ذات طابع متشابه . ويلوح ان السبل السياسية التي تسلكها الدول ، يجب ان تقودها في الحرب الى اعتناق المبادىء التي يفرضها تقدم العصر المادي .

والواقع ان النظام المعروف بنظام الامة المسلحة لا يطبق الا على حروب لا ضابط لمصيرها . فالامة لا تغضي عن تعبية كل الرجال القادرين على حمل السلاح وعن مصرع الملايين من ابنائها وخسارة ثروات طائلة ، وعن الانقلاب المعنوي والاجتماعي الذي يرافق دائماً حروب الجماعات ، الا اذا كان هناك منازعات كبرى وتصادم بين المطامع واحقاد مطلقة العنان ، وتهديد بالاستعباد . تلك كانت الحالة الروحية عند الشعوب الاوروبية قبل سنة ١٩١٤ ، فقد كانت هذه الشعوب مقتنعة بان الحرب تضعها امام واحد من

امرين : الانتصار او الهلاك .

هل طرأ تبدل ما على هذه الحالة ؟ ما من شك في ان المبادىء ظلت في الظاهر على حالها بعد ان اوشكت الامم المسلحة ان تفني بعضها بعضاً ، لان الجمهور لا يتخلى بسهولة عن العقائد التي يكون قد اعتنقها ، ولان معظم الاختصاصيين يستمسكون بالآراء التي يلقنونها . الا ان هذا لا يمنع ان الظروف التي لابست « النضال الاجتماعي » تزول شيئاً فشيئاً مفسحة المجال امام ظروف اخرى . وهناك ما يحمل على الاعتقاد ان حرباً تنشب غداً لن يكون لها ، كي تبدأ ، سوى صلة بعيدة بالاصطدام السريع بين القوى المعبأة .

ان الخوف من التدمير الذي لازم الامم مدة طويلة قد فقد بعض قوته ، فالمحن التي تقاسيها الاوطان تبعث حيويتها ، وتعلمها ان تقلبات الزمن ليست كافية للقضاء على هذه المادة الذاتية وعلى هذا الشطر الخاص من الماضي والمستقبل اللذين هما جوهر الاوطان . وها هي البلدان التي فقدت في الماضي نعمة الاستقلال تلقى نفسها حية اكثر من اي وقت . ألم يهتف « كاتون » في مجلس شيوخ روما : « يجب ان ندمر قرطجنة » ؟ الم تتعرض فرنسا سنة ١٧٩٣ لخطر الانحلال ؟ وقد قاتلت فرنسا سنة ١٩١٤ لتدفع عنها خطر الهلاك . فمن يتصور اليوم ان حرباً ، مهما تكن نهايتها ، تستطيع ان تقضي على « انكلترا العتيقة » وتزيل من الخريطة « ايطاليا الفتية دائماً » وتصرع « فرنسا الخالدة » ؟

ان القوميات تتكوم مع الزمن وتتساند تسانداً متيناً . ويساعدها

على الاهتمام بنفسها وبمصيرها عدة عوامـل منهـا المؤسسات الديموقراطية والتعليم والحافز العنصري الاجتماعي الذي تقويه نواحي النشاط الجديدة وسرعة المواصلات . وقد اوشكت ان تزول من الوجود التابعيات المادية والمعنوية ، التي كانت تساعد في المـاضي على فرض الوصاية السياسية . نعم ، لا تزال هناك دول تحتفظ حواليها بفلول من العناصر الغريبة ، ولكن هذا يسبب لها مئات الارتباكات ، فالاقتراع والمال والصحافة والنقابات تقيم نفسها حامياً للاقليات التي تلقى من الخارج العون والتأييد من هيئات لا تحصى ، تارة بشكل نشرات وطوراً بشكل اكتتابات .

فاية فائدة حقيقيـة ودائمة تعود اليوم على الدول من الاغراق في الفتح ، ما دامت لا تستطيع التـذرع بالحق الالهي ، وحق المتبوع على التابع ، وبالاسترقاق ، وما دام لا مجالس تمثيلية يمكن افسادها ولا كتاب يمكن اخذهم بالارهـاب ، ولا اشراف يمكن اغراؤهم ، وما دام العنف هو السبيل الوحيـد الى انشاء نواة الامبراطوريات ؟

لقد تجمد العالم بعد غليان شديد ، وكل محاولة لتجزئته تنتهي بتحطيم اسنان القائمين بهـا مهما تكن امكانياتهم . ذلك انه كان للفتوحات الكبرى عهد ومضى ...

ولكن ألا يمكن ان يعود النصر على صاحبه بالفوائد المـادية العميمة التي كان دعاة التوسع والاستعمار يحلمون بها حتى الامس القريب ؟

في الوقت الذي كان سراب التصاميم والاتفاقات وتسويات الدفع والتعويضات والديون والرهون الخ ... يتبدد او يزول بين مؤتمر وآخر ، كان المؤتمرون يلاحظون ان حرباً اممية تلحق بالممتلكات ضرراً هيهات ان يعوض ، وان دفع تعويضات موازية للتكاليف يتسبب عنه رجات تؤدي الى الخراب .

والواقع ان تراكم الثروات في مكان واحد ، وتشابك المصالح وارتشاح الآراء ، قد اقامت بين الشعوب نوعاً من الارتباط كفيلا بوضع حد لمطامعها . وادركت الامم ان مصاباً ينزل باحداهـا لا يعود عليها هي بفائدة ما اذا تجاوز حداً معيناً . واذا قيض لكل امة على حدة ان تظل واثقة من تفوقها ، فانها تكف عن الطموح الى السيطرة الشاملة .

أيجوز أن نفهم من هذا الانقلاب ان الدول قد صرفت النظر عن مشاريع التوسع ؟ طبعاً لا ، ولكن المطامع قد انكمشت بعض الشيء رغم مظهر بعضها الشرس . ويمكن القول ان هذه المطامع اخذت تنصب على اهداف محدودة : الانشلوس ، السار ، الساحل الدلماسي ، جزء من ترنسلفانيا . هذا نموذج مما يطالبون به اليوم على ان يطالبوا بسواه ان هم لم يعطوا ما يطلبون ، دون ان يشتطوا في التطلب . لهذا يمكننا ان نتبين بسهولة وراء سيل الشتائم الذي يرافق صيحات المتطلبين ، رغبة صادقة في الاكتفاء بالقليل الذي يمكن الحصول عليه وفي تجنب كل ما يثير حذر العالم ونقمته . وعدا هذا ، يظهر الطامعون حرصاً اكيداً على المطالبة

باسم العدل ولا يهددون احداً في معرض التباهي بالاستمساك باهداب السلم .

ولا ريب في انه سيكون لهذا الاحتراس في اختيار الاهداف السياسية أثر في الشكل الذي تتخذه الحرب ، فمن المشكوك فيه ان يقوم المعتدي دفعة واحدة بمجهود حربي لا حد له من اجل منطقة او مستعمرة ، وسط امم محايدة تشجب الحرب والى جانب حلفاء مترددين ، خائفين . ويلوح ان المجهود الاول سيرمي الى الاستيلاء على الهدف المطموع به ، ووضع الخصم على المفترق ، فاما ان ينحني امام الامر الواقع او ان يخوض حرب افناء . ويلوح ايضاً ان اصحاب المطامع سيتحالفون ويعملون اليد في اليد . وقد تقع الواقعة دون ان يسبق ذلك اعلان حرب رغبة في مداراة الرياء العام وفي تجنب المشاكل القانونية في العلاقات الدولية .

لا اقصد من هذا الى القول انه لم يبق محل للاصطدامات العنيفة بين الامم المسلحة . اذ كيف يمكن تصور حرب تخوض غمراتها من البداية الى النهاية العناصر ذات الاختصاص دون سواها ، وامامنا ملايين الاضرحة لملايين الرجال الذين سقطوا في ساحات الحرب العظمى ! ثم ان تغلب فريق على آخر في الجولة الاولى قد لا يحتم على الفريق المغلوب الانحناء امام هذه النتيجة ، الا اذا لمس عند الغالب ، الذي شجعته السهولة التي اصاب بها نجاحه ، ميلا صريحاً الى توسيع نطاق هذا النجاح ، فقد شجع تخلي الصينيين عن منشوكو الحزب العسكري الياباني على اجتياح

« جيهول » وتهديد « بكين » .

ان دولة خليقة بهذا الاسم تجتهد في النهوض بعد المحنة الاولى غارفة من حيويتها ما يكفل اعادة التوازن واصلاح الموقف . ولا بد من الاشارة الى ان وسائل القتال الحديثة ، سواء قام على خدمتها اختصاصيون او لا ، تفعل فعلها دون ما شفقة في المحاربين وفي السكان ايضاً . فنشاط الطرادات التي تسير بسرعة ٣٥ عقدة في الساعة والغواصات التي لا تقل دائرة عملها عن ١٥ الف ميل سيسبب اضطراباً في معيشة الجماعات بشله حركة الواردات ، وستقتل اغارات الاساطيل الجوية ، والقنابل المنطلقة من مسافات بعيدة والطائرات العمياء ، آلاف الناس الذين لا ذنب لهم وتتلف ممتلكات عديدة ، وسيكون لهذه الحوادث رد فعل اولي في الجماهير . ولا يعزب عن البال انه وان ازدادت الاهواء والشهوات هياجاً بازدياد الآلام ، فلقد تتخاذل الشعوب وهي تتأهب لدخول المعترك .

ان الفاتحين ، مع اعدادهم انفسهم لكل الاحتمالات ، الحسنة منها والسيئة ، سيحاولون قطع عقدة « غورديوس » بضربة واحدة .

ومن هنا يتضح لنا كم يتمشى الجيش المحترف والملابسات السياسية الجديدة ، وهو المستعد لان يزحف حالا الى كل مكان ، والقادر ، بفضل المحركات ، ان يكون على قدم الاستعداد للعمل في ساعات معدودات ، والقمين بأن يستخرج من العتاد النتائج التي تترتب على المفاجأة والقوة على الاختراق ، والمنشأ ، جملة وتفصيلا ، اداة صالحة

لاحراز اكمل الانتصارات المحلية واسرعها .

وهكذا يقوم تزاوج هائل بين السرعة والقوة والتمركز التي تمهر بها آلة القتال العصرية نخبة عسكرية مدربة ، وبين جنوح الدول الى حصر موضوع النزاع ليتسنى لها ان تضع ايديها على الهدف باقصى سرعة وباقل كلفة مستطاعة .

ان فرنسا لا تفكر بالتوسع ولا تشتهي اكثر من الاحتفاظ بما تملك . يبدو هذا الموقف في الظاهر خالياً من الشوائب ، مع انه ينطوي على بعض المحاذير . ترى الا يكون ضروريا لشعب من الشعوب ان يكون له مثل اعلى وطني كبير يدعم نشاطه ويحول دون تفككه ؟ ان تصادم الآراء والاهواء وتعارض المصالح في دولة ما ، يشكلان مع الزمن خطراً على كيان هذه الدولة اذا لم يكن للمواطنين امنية مشتركة تخفف من حدة الخلافات وتجمع شمل المخلصين . فالوحدة الفرنسية مدينة بتحقيقها واستمرارها الى عوامل شتى اهمها دون شك الحنين الى نهر الرين الذي ورثناه عن الغوليين . وقد وازنت غضبة آبائنا على معاهدات سنة ١٨١٥ خلال اربعين عاماً الانقسامات التي اشاعتها في الرأي العام عدة فتن وثورات ، وظل التفكير بالالزاس الضائعة فوق الصراع السياسي والاجتماعي الذي تميزت به الجمهورية الثالثة . واذا كان يبدو على الجمهور الفرنسي اليوم انه فقد الشعور بالمصلحة العامة فليس هذا الانحطاط غريباً عن انعدام الطموح الى التوسع .

ولكن سير الامور مضافاً الى تاريخنا المثقل بالحوادث يحظر

علينا العزلة رغم زهدنا في التوسع . وكما لا يجوز ان تظل سياستنا مقصورة على مراقبة الحدود والسهر عليها ، لا يجوز ان تقف ستراتيجيتنا غداً عند الدفاع عن الاراضي الفرنسية . فنحن ، شئنا ام ابينا ، جزء من نظام قائم ، تتضامن عناصره فيما بينها وتتساند . فما يحل باوروبا الوسطى والشرقية ، بالدانمرك وبلجيكا والسار وسويسرا ، يمسنا في الصميم نحن ايضاً ، وهذا ما حملنا على عقد معاهدات والانضمام الى مواثيق وقطع تعهدات ، وجعلنا نلزم موقفاً من شأنه ان يؤكد مرة اخرى فكرة التضامن بين الدول .

ان غلطة الامبراطورية الثانية التي اغضت عن حادث « سادوا » (١ ولم تسق جيشها الى الرين ، قد كلفتنا دماً ارقناه ودموعاً ذرفناها . ينبغي لنا ان نكون مستعدين للعمل في الخارج في كل وقت وكل مناسبة والا الفينا انفسنا هنا وهناك وهنالك ايضاً امام الامر الواقع ، واصبحنا وحدنا لا حلفاء لنا ولا اصدقاء ، وسط عالم يزدرينا وامام اعداء زادت الانتصارات مركزهم مناعة .

ولكن كيف يمكننا ان نعمل في الخارج بالسرعة المطلوبة اذا كنا لا نستطيع الاتيان بحركة قبل ان تتم تعبية الاحتياطي ؟ ان المنحدر الذي يقف عنده مصيرنا يسوقنا الى تجهيز انفسنا باداة للتدخل مستعدة دائماً لاعمال النجدة ، وبهذا دون سواه يصبح لدينا الجيش الخليق بسياستنا .

---

١) سادوا قصبة في ولاية بوهيميا انتصر فيها البروسيون على النمسويين في ٣ تموز سنة ١٨٦٦ وفيها تقرر مصير الحرب بين الدولتين .

نعم ، اننا نسعى الى ادخال واجب الحماية هذا في نظام عالمي او في نظام اوروبي في الاقل . ولا شك في انه لمن اجمل الاشياء واجزلها نفعاً ألا نميز بين مصلحة فرنسا الدائمة وبين مثل انساني اعلى له شأنه العظيم . فاتحاد الامم لضمان مصلحة كل منها ينقل هذا الهدف من نطاقه الفرنسي البحت الى دائرة اممية . لهذا يجب ان نقر دون ما تحفظ ، ومن وجهة النظر الوطنية فقط ، مشاريع الالتزامات المحددة التي يؤيدها ممثلونا والتي ترمي الى تنظيم تعاون متبادل بين الدول .

ولكن كيف يمكن تحقيق هذا النظام الكوني وفرض احترام الحقوق والحدود المتبادل ، وتأمين مبادرة الكل الى المساهمة في الدفاع عن البعض ، ان لم يكن باستخدام القوة المتأهبة ؟ فالعدالة التي لا تملك سيفاً الى جانب ميزانها ، لا تلبث ان تداس . وبعد ، ان فرنسا ما انفكت تدعو الى انشاء شرطة دولية قوامها فصائل تنتمي الى مختلف الدول ، وممن تتألف هذه القوة العامة ، ان لم يكن من رجال محترفين ؟ اتجمع الحكومات الذين بلغوا سن الخدمة وتعبىء الاحتياطي كلما دعت الحاجة الى وقف القتال بين اليابان والصين واحتلال شاكو (١) وطرد الميليشيا العنصرية من النمسا او من السار ؟ لا ، بل الافضل ان تستخدم وحدات محترفة مهيأة

---

(١) منطقة صحراوية في اميركا الجنوبية شمالي الارجنتين .

للانتقال ومعدة اعداداً عسكرياً يجعلها تحارب في اي مكان دون ان تعنى بمعرفة الباعث على القتال . فتحتل الارض المختلف عليها وتقيم حاجزاً بين الخصمين وتؤمن تنفيذ الرقابة الدولية ، وعلى الجملة تدعم الامن بقوة مادية هي ولا شك اعظم جدوى من المناشدات والدعوة الى احلال الوئام محل الخصام . وهكذا يصبح الجندي المحترف الضامن الذي لا غنى عنه لتحقيق الاماني البشرية السامية .

هب ان فرنسا تعمدت نفض يدها من الآخرين ، وانطوت على نفسها داخل حدودها تاركة العالم غنيمة للطامحين الغاصبين ، متفرجة من اعلى اسوارها على مذبحة الابرياء في السهل ، فثمة عوامل داخلية بحت تفرض عليها جمع بعض ابنائها في وحدات عسكرية محترفة لان كياننا الوطني اصبح كيان امبراطورية ، ويزداد هذا الطابع الامبراطوري بروزاً في حياتنا يوماً بعد يوم . فألوف الروابط التي تشد الوطن الام الى ممتلكاته ما وراء البحار آخذة بالنمو والتكاثر لا بدافع حاجة الممتلكات الى النشاط الفرنسي لاستثمارها فحسب ، بل لان التبادل بين الدول الذي اصبح ضيق النطاق ، وهو من مميزات العصر ، يضاعف يوماً بعد يوم في حياتنا الاقتصادية اهمية ايجاد اسواق جديدة لمنتجاتنا .

ولكن فيما تنتشر تحت اشرافنا في هذه الممتلكات الثروة والمعرفة والحرية ، نشهد نهضات فكرية ، واهواء ومصالح ، الغرض الواضح منها وضع حد لسيطرتنا . ولا محل للريب في انه اذا قيض لنا ان نتابع عملنا حتى نبلغ من الرقي درجة تصبح فيها

الحكمة من خصائص النخبة بين سكان الممتلكات والولاء من خصائص السواد ، عندئذ نرى السكان جميعاً يقبلون الوحدة باخلاص وهم يقبلونها اليوم متبرمين . على انه ينبغي لنا في الوقت الحاضر ان نظل الاسياد المطاعين لئلا يضيع علينا كل شيء .

لا مشاحة في ان نظاماً عسكرياً لا يضم سوى وحدات فرنسية خالصة غير محترفة ، وعاجزة لنقص في الاستعداد عن القتال ما وراء البحار ، يتعارض والمهام التي قد تقع على عاتقنا هناك . وبالرغم من ان اخلاص القوات المساعدة المحلية يكاد يكون فوق الشبهات ، فقد لا يكون بعد اليوم من حسن السياسة ان نعتمد عليها وحدها في تثبيت سلطتنا .

ان فرنسا ، الدولة المسلمة التي تتحسس من حلب الى اغادير رجات الاسلام الصماء ، والدولة القائمة على شاطىء الباسيفيك ، معانية في الهند الصينية متاعب الهزات التي تميد بآسيا ، لتسيء الى نفسها بان تعهد الى القوات الاهلية وحدها مهمة الحفاظ على امبراطوريتها .

وعندما يصبح لنا قوة محترفة قوامها رجال منا ، معدون للحملات البعيدة ، ومعزولون عن السوق الانتخابية ، تعرض منهم بين حين وآخر وحدات جميلة في مناطق مختارة ، عندئذ يصبح في امكاننا مجابهة الحوادث المؤسفة وجعلها نادرة الوقوع .

٣

يتضح مما تقدم ان نزعات العالم والشروط التي يتطلبها قيام

منظمة دولية لحماية السلام ، وواجباتنا التي تحتم علينا نجدة الضعفاء وتوطيد الامن في الامبراطورية ، تتضافر كلها فتفرض علينا انشاء قوات محترفة . ان تأخر فرنسا في انشاء هذا الجيش قد يكون باعثاً على الدهشة عند الذين يجهلون قوة الاوهام والتقاليد البالية عندنا .

ولا مفر من الاعتراف بان النظام العسكري المفروض على خصمنا الرئيسي منذ فرسايل كان يضمن لنا تفوقاً عسكرياً ساحقاً بدا معه تعديل انظمتنا تدبيراً لا فائدة منه . ولكن لم يخامر احداً شك في ان هذه الحالة هي حالة موقوتة وان المانيا التي كونها السلاح والتي تصبو الى حمله ، لا بد ان تطالب يوماً بوضع حد لهذا التدبير القسري . على ان نفراً من السياسيين كان يأمل منع التنافس الجموح في ميدان التسلح باتفاقات جديدة . وعندئذ تؤمن المساواة في الحد الادنى في التسلح ضمانات صريحة تمنع كل اعتداء .

ولكن هذا المجهود الرامي الى الحد من حريات الدول يبدو اليوم مهدداً بالاخفاق ، ويصطدم فنياً وعقبات لا يمكن التغلب عليها ، لانه يبذل في وقت تأخذ الحكومات بالخدمة العسكرية الجبرية القصيرة الامد ، مع ان القوة الحربية الحقيقية في نظام تعبية الجماهير ليست كامنة في القوات التي تملكها الدولة في السلم ولا في المخزون من المدافع والرشاشات من مختلف العيارات ، او في عدد الطائرات العسكرية ، بقدر ما هي كامنة في عدد الرجال الصالحين للخدمة ، وفي قوة الانتاج والنشاط الجوي الدائم والحالة المعنوية

في الشعب ، وهي عناصر لا يمكن عملياً ضبطها بقياس عام . ومع هذا فان نظام المساواة في الحد الادنى هـذا يجعل التفوق للالمان علينا الا اذا بادر جيراننا وعضدونا تعضيداً كاملا .

يرى بعضهم ان هذه المحاذير ليست بذات اهمية اقتناعاً منهم بان الوحدات المنشـأة على اساس الخدمـة القصيرة الامـد والتي تصلح للدفاع على الاخص ، لها ميزة ترجيح كفة السلام على الحرب ، في حين يغري الجيش المحـترف الحكومات بالاعتـداء لانـه يجيـد الهجوم . فاذا قيل ان الدولة التي تملك جيشاً هجومياً تكون لها المبادأة ضد جار لا يملك سوى ميليشيا وطنية ، فلا يبقى محـل للاخذ والرد حول هذه المسألة . ولكن القول اطـلاقاً ان الجيش المحترف هو بحد ذاته اشد بطشاً من الجيش المعبأ تعبئة عامة ، انما هو حماقة لا اكثر ولا اقل . ان الغبـاوة شيء نسبي ، فمجرد كون جيش عديم الخبرة في فنون القتال ليس سبباً كافياً يقعـد بنـا عن استخدامـه في الهجوم . هـل احجم متطوعو الثورة والمصادرون عن مهاجمة العدو ؟ لم يذكر التاريخ متنافسين اندفعا الى الهجوم بشراسة كالقوات التي ارتجلهـا الشمال والجنوب ابان الحرب الانفصالية الاميركية . وقد رأينا بسمرك ومولتكه يخوضان حروباً ثلاثاً بمجندين جدد واحتياطيين . ونحن لم ننس بعد اندفاع القوات الاميركية الناشئة في معارك « ارغون » و « شامبانيا » . ان الغرائز الشعبية التي تهيب بخطباء الاندية والمجـالس ان يتغنوا بالتريث في وقت السلم ، تدفعهم الى المطالبـة بالهجوم حـين تنشب

الحرب وثور الاهواء . وهكذا سمعنا « سان جوست » يقول لجوردان (١ : « لا تعقل بعد اليوم ! » ورأينا « غامبيتا » يجبر « دوريل » (٢ على التزام خطة الهجوم بالرغم منه ، ورأينا بريان يستبدل « نيفل » من « جوفر » المتريث .

والواقع ان مبدأ الامة المسلحة وان يكن يضع في متناول الدولة موارد لا تنضب ، فهو يؤدي الى تبذير هذه الموارد وبالتالي الى مضاعفة الخسائر ، وهي في القتال جزية انعدام الخبرة . وعلى الضد من ذلك فالجيش المحترف القليل العدد والذي تصعب اعادة انشائه ، يحملنا على التزام حدود الاقتصاد والتوفير . فقد كلفت حروب لويس الرابع عشر وفريدريك البروسي معاً اقل مما كلفت حروب الثورة وحدها . وشهد شانزي (٣ على نهر اللوار خلال ثلاثة اشهر مصرع عدد من الجنود لم يشهد مثله « كونده » خلال حياته العسكرية كلها . ولم تكلفنا المعارك التي خضناها منذ جان دارك حتى روشنبو (٤ الخسائر التي كابدناها بالرجال والاموال خلال الحرب العظمى .

---

١) « سان جوست » احد رجال الثورة الفرنسية انتدبته الحكومة لمرافقة جيوش منطقة الرين حيث اظهر من البراعة والشجاعة الشيء الكثير . اما جوردان فمن قواد الثورة المشاهير .

٢) احد القواد الفرنسيين في الحرب السبعينية .

٣) قائد فرنسي اشترك في الحرب السبعينية (١٨٧٠) .

٤) مارشال فرنسا ، قائد الجيوش التي ارسلت لمساعدة الاميركيين في حربهم الاستقلالية .

يتضح مما تقدم انه اذا انتهى التطور الذي يجعل للجيوش المحترفة تفوقاً متزايداً ، الى احلال المعارك المنظمة بدقـة محل الاصطدامات الجنونية تقوم بهـا الجماهير المسلحة ، فان هـذا التطور يكون ربحاً عظيما يجنيه الجنس البشري .

لعـل الحرب هي في ميـدان النشاط عنصر محتوم كالولادة وكالموت . ولعلها ايضاً الرجة التي لا غنى عنها للانتقال من حال الى حال ، المحراث في الارض ، الفأس في الشجرة ، « المهدة » في الحائط . الا ان هـذا لا يمنع ان تتوقف فظائعها الى حـد كبير على المجـال الذي يفسح امامها . فليس ثمـة نوع من النضال ادمى من نضال يقوم بين الامم المسلحة .

٤

ومهما يكن من امر ، فالامبراطورية الجرمانية تندفع في مضمار التسلح . وفي هذا السباق تصبح اسبقية فرنسا هي الشريعة العليا . وعلى هذا فكل ما يمكن ان يزيد في اهمية القيمة نسبياً هو في مصلحة فرنسا المباشرة . واذا كانت هذه المصلحة قد اقتضت منا في الماضي ان ندشن في اوروبا الاصطدامات بين الجيوش الجرارة والكتل البشرية المتراصة ، فهي نفسها تهيب بنا اليوم ان نوجـه التنافس وجهة اخرى .

اجل ، كنا نحن السابقين في اواخر القرن الثـامن عشر الى جعل العدد اساساً تقوم عليه مؤسساتنا العسكرية ، وقـد وقف رجالنا خمسة وعشرين عاماً في وجه اوروبا كلها . وكانت تشجعنا

على الاستمساك بالاساس العددي عوامل شتى منها ان فرنسا كانت وقتئذ اوفر سكاناً من النمسا وانكلترا وبروسيا مجتمعة ، واغنى الامم وارسخها قدماً في المركزية والوحدة القومية .

والواقع اننا قاتلنا اثنين ضد واحد في « جيماب » و « واتيني » واغرقنا البلاد المنخفضة والرين وايطاليا و « فانده » بموجة طاغية من اربعة عشر جيشاً ، وواجهنا الحلفاء ، حتى معركة ليبزيغ ، بقوات تعادل قواتهم . وقد زال هذا التفوق شيئاً فشيئاً خلال القرن الماضي ولكننا احتفظنا بذكراه . ومن هنا يقوم عند السياسيين وهم يجعلهم يعتقدون ان الخطأ والاهمال يمكن ان تعوضها عند الحاجة جوقات تخرج من الارض . ومن هنا نلمس عند العسكريين ميلا الى تكتيك مسرف كان سنة ١٩١٤ يذكي حماستنا رغم تعقلنا . اما اليوم فقد اصبحت بلادنا مع الاسف اقل الدول العظمى سكاناً . فمقابل فرنسي واحد يراوح عمره بين العشرين والثلاثين نجد اثنين عند الالمان ومثلها عند الايطاليين وخمسة عند الروس . ولا ريب في ان موقفنا بالنسبة اليهم يتحسن تبعاً لهبوط عدد المواليد عندهم حتى نصبح جميعاً متساوين في القلة .

ولا ريب ايضاً في ان ما تجنده افريقيا الشمالية والمستعمرات الفرنسية قمين بان يقدم الينا مساعدة ثمينة اذا عرفنا كيف نضمن لانفسنا هذه المساعدة : وسائل مواصلات امبراطورية ، حسن نية هذا الجار او ذاك ، سلطة على رعايانا لا ينازعنا فيها منازع . ولكن يجب الا يفوتنا ان الانتصارات الفرنسية المقبلة لن

تكون انتصارات الجحافل الجرارة .

ان انتاج صناعتنا لا يؤمن لنا بحال من الاحوال التفوق العددي في السلاح ، مهما يكن بارزاً ومنوعاً ومتوازياً . نعم ، ان لنا من غنانا بالحديد ، ومن آلاتنا العصرية ووسائل النقل الكافية والموانىء الممتازة واليد العاملة الحاذقة والنشيطة والاختصاصيين الموهوبين ، ما يتيح لنا ان نمهر جيوشنا بعتاد حربي قوي . ولكن فقرنا بالفحم وافتقارنا الى النفط والنحاس والزنك وانصرافنا الى الانتاج المتوسط ، عوامل تحول بيننا وبين احراز التفوق على الصناعة الالمانية الثقيلة في مضمار الانتاج الكثيف . اما في حقل استخراج الحديد واستصناعه فالمانيا تنتج ضعفي انتاجنا من الصلب واربعة اضعاف ما ننتج من الفحم المعدني . وتصنع المانيا من الآلات سبعة اضعاف ما نصنع . ويخرج من المعامل الالمانية من المواد المعدة لصنع البارود والمتفجرات اربعة اضعاف ما تخرجه معاملنا من البترول ، وعشرة اضعاف انتاجنا من « السليلوز » ، واثني عشر ضعف انتاجنا من « الآزوت » . والانتاج الالماني في الحقل الكيماوي هو ثلاثة اضعاف انتاجنا مما يؤمن لهم تفوقاً كبيراً في صنع الغازات . وليس ثمة ما يدل على ان المساعدة العالمية التي اتاحت لنا احراز النصر في الحرب العالمية الاخيرة ، ستكون في متناول ايدينا في الحرب المقبلة . وهب اننا نلنا هذه المساعدة فانها ستكون محدودة وتكلفنا غالياً . ولئن نحن استطعنا ان نقذف الى الميدان عدداً من الوحدات موازياً لما يقذفه العدو منها ، فلسنا

واثقين بمقدرتنا على ان نرد ، من بداية الحرب الى نهايتها ، على كل مدفع بمثله وعلى كل طن من القذائف بطن مماثل . ففي التنافس القائم بين الصناعات الحربية لسنا نحن المبرزين في مضمار التجهز .

ان التفوق في العدد والمادة ليس لنا ، فهل لنا كجماهير الاستعداد الطبيعي للقيام باعمال تعوض النقص الحاصل في الوسائل التي لدينا ؟ يلوح ان روح النظام والميل الى الارتباط والتساند ومؤهلات الطبقات ، هذه العناصر التي يتركب منها نشاط الاقوام وحيويتهم ، ليس لنا منها نصيب كبير . هناك شعوب تنقاد لزعيم وتميل الى العيش جماعات متلاصقة ، والنسج على منوال سائر الامم ، اما نحن فحالنا غير هذه الحال ، لا ترتاح نفوسنا كثيراً الى النظام القاسي الذي يجب ان تدار به القطعان الكبيرة . فمواكبنا تسير محدثة جلبة وضوضاء ، والطريق ذو الاتجاه الواحد يسبب لنا كدراً ، واذا غنينا مجتمعين كان غناؤنا منكراً .

ما من شك في اننا نقبل الفرائض احياناً وعند الضرورة . ويتفق ان تبعث فينا الاهواء الوطنية او شعلة احدى القرائح نشاطاً يدهش الخصم ويدهشنا نحن ايضاً . يا له ذخراً عجائبياً ينعش آمالنا حتى في شر الكوارث ! الا انه لا يلبينا بانتظام كلما دعت الحاجة الى الاستنجاد به . وفوق هذا نرى ان اساءة استعمال السلاح في ايامنا هذه قد خلقت في شعبنا هوساً جنونياً ضد الحرب قد لا يلبث حتى يتجاوز كل حد . فثمة عقائد وصور وتوريات يروجون لها ويرمون منها الى طرد اشباح القتال . وقد اصبح

الماضي مشبوهاً لانه يحمل اكثر المعارك .

وبينا يوسع هذا الانحطاط الثلمة التي تحول دون تراص صفوفنا كأمة محاربة ، تعمد شعوب ذات مطامع تعيش حولنا ، الى تعزيز استعداداتها الطبيعية لحشد القوى ، بسياسة التفكير العام . فتربية الاولاد ، وتنشئة الشبيبة تنشئة رياضية ، وجمع شمل المراهقين في منظمات ، ووضع قواعد تفرض على الناس الطاعة واحترام النظام ، هذه كلها عناصر تعد المواطنين لاجتياز الامتحان ومواجهة اقسى الاحتمالات . وبفضل هذه السياسة نرى الجماهير عندهم ، وقد الهبت عواطفها الوطنية ، واصبحت بمأمن من الخطب والصور القمينة باشاعة التردد في نفوسها وتثبيط هممها ، تخضع باستمرار لنظام الصف هاتفة لرؤسائها ، مرتدية البزات العسكرية ، ومستعدة لان تزلق من السلم الى الحرب دون ان تمر في فترة انتقال .

ولا حاجة الى القول انه لا يجوز الحكم مسبقاً على ما قد تفعله الشعوب عندما يجد الجد استناداً الى مسلكها في السلم . فاقتحام الموت من بعيد ، وتثبيت الحقوق بالصراخ شيء . اما تحميل الانسان نفسه كل التضحيات التي يمكن بشريا تقديمها في اتون الحرب فشيء آخر . ولكن اي وزن يبقى يا ترى عندما تدق الساعة لمغالاتنا الموقوتة في الاستمساك باهداب السلم ؟ سيكون وزنها خفيفاً على الارجح لانه لا يعقل ان تنال بضع سنوات من « النورستانيا » منالا كبيراً من مؤهلاتنا الحربية هذا الرأسمال الضخم الذي ندخره منذ اجيال . فوراء المظهر المثبط للهمم يجري

نهر دائم من النشاط وعلو الهمة . رأينا الاتحاد المقدس يحل سنة ١٩١٤ محل المنازعات التي كان الوطن مسرحا لها ، لان الشعور الوطني الذي ايقظه الخطر كنس السفسطات بسرعة وبددها كما تبدد الامواج زبد البحر .

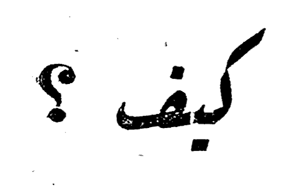
ولكن هذا الاتحاد الفجائي تجاه العدو ليس كافياً في النضال ، اذ تعقب مفاجآت المصادمات الاولى القلق من تقلب الاحوال ، والآلام المتزايدة ، والحسد ، والغضب ، والاحتقار ، تهيجها بشاعة الازمات . فالمفاجآت الاولى كأس لا بد من شربها حتى الثمالة . وهنا يخشى ان تنبت بذور التراخي والتخلي . فيحسن بفرنسا ان يكون لها منزع آخر في قوسها مع استمرارها في اعـداد العـدة لمواجهة الجحفل بالجحفل .

كل شيء يعد فرنسا لان تكون مجلية في مضمار النوع . فبلادنا ذات السماء المتباينة الالوان ، والشكل المنوع والتربة الخصبة ، واريافنا ذات الحنطة الجيدة والخمور الطيبة واللحوم الممتازة ، وصناعتها التي تنتج اشياء ناعمة دقيقة ، ومواد متقنة الصنع ، واصنافاً كمالية ، ومواهبنا في المبادهة ، والاقتباس والعزة ، هذه كلها تجعل منا العنصر المختار للقيام بالاعمال الباهرة والانتظام في حضائر مختارة .

ان المهام المستقلة استقلالا ذاتياً ، والسباق بين الرجال في حلبة حسن التصرف والبداهة وحضور الذهن ، والتنافس بين المهارات في استعمال الآلات المرنة التي تتطلبها غداً المعارك بين المحترفين ، تنسجم انسجاماً طبيعياً واستعدادات النخبة عندنا ، والعوامـل التي

جعلت بلادنا غنية بابطال صنع المواد اللطيفة ، ستساعدنا في تحقيق المشاريع الفنية التي تؤمن غداً انتصار الجيوش المحترفة .

ويلوح ان القدر يريد ان يخدم حظ فرنسا مرة اخرى بفتحه هذا المنفذ الجديد امامها .


كيف ؟

التنظيم

١

ينبغي لنا ان نجهز انفسنا باداة للمناورة زاجرة وواقية في وقت واحد ، اداة يمكنها ان تنشر للتو والساعة قوة عظمى تباغت العدو باستمرار . فالمحرك قمين بطبع العمليات بطابع وحشي ومفاجىء ما دام يضع نفسه تحت تصرف القوى المسلحة ليحمل ما يكلف حمله الى حيث تدعو الحاجة وبالسرعة المطلوبة بشرط ان تديره ايد بارعة .

غداً يتحرك الجيش المحترف كله ، وقل اذا شئت يتدحرج ، على آلات ذات سلاسل ، وينتقل كل عنصر في الجيش والدوائر التابعة له من مكان الى آخر على مركبات خاصة اعدت لهذا الغرض ، فلا ينقل بغير هذه الوسيلة رجل ولا مدفع ولا قذيفة حتى ولا قطعة خبز . فاذا تحركت وحدة كبرى عند الفجر فلا يأتي المساء حتى تكون قد اجتازت مسافة خمسين فرسخاً . ويمكنها ان تجتاز في ساعة مسافة ١٥ كيلومتراً خلال اي ارض لتحتل مواقعها تجاه العدو استعداداً للقتال او لتتوارى بعد وقف الاصطدام بعيداً عن

متناول النيران والمنظار . بيد ان هـذه السرعة تصبح قليلة القيمة اذا لم ترافقها قوة في النيران والاصطدام تجعل سير القتال منسجماً وسرعة الحركة ، والا فاية فائدة تبقى لسرعة الانتقال في ميـدان المعركة اذا الفت الوحـدة المتحركة نفسها في النهاية عاجزة عن الاتيان بعمل ؟

ان الفن الحديث ليحل المسألة بفضل الآلات المدرعـة ، فاذا توسعت الامم في التجهز بهذه الآلات يمكنهـا تجنيب القوات المختارة معارك الجبهة الثابتة التي اخفقت من جرائها الحرب العالميـة الاخيرة من الناحية الفنية وتسببت عنهـا خسائر فادحة دون ان تسفر عن نتائج ذات شأن .

يحتاج انشاء الجيش الذي يمكن ان يتم « الحدث » على يده الى ست من فرق خط النار ، سيارة وذات سلاسل ، وبعضهـا مدرع . وهو جهاز تتيح له جبهته وعمقه ووسائله الخاصة للتموين وتغطية الحركات ان يعمل من تلقاء نفسه . وتمهر احـدى الفرق الست بالعتاد والوسائل اللازمة لخوض غمار المعركة في حين تتولى الفرق الخمس الباقية الاحاطة بها .

ويمكن ان نتصور تأليف كل من الفرق الست بالشكل الآتي :

لواء قوي التصفيح يسير بسرعة الجواد عادياً ، ويكون مسلحاً بمئة وخمسين مدفعاً متوسطة العيار وباربعمئة مـدفع اصغر عياراً

وبستمئة مدفع رشاش . تعبر المهـاوى ولو كان عرضها ثلاثة امتار وتتسلق المنحدرات البالغ ارتفاعها ثلاثين متراً ، قالبة الاشجـار المعمرة ، والجدران التي لا تقل سماكتها عن اثنتي عشرة آجرة ، ساحقة كل شبكة وسياج ووتد (خازوق) . هذا ما يمكن الصناعـة ان تمهر به في ايامنا هذه كل فرقة محترفة .

يؤلف لواء الدبابات العنصر الرئيسي في الوحدة الكبرى ، ويتألف هو من كردوسين يضم احدهما الدبابات الثقيلة ويضم الآخر الدبابات المتوسطة ، وتتولى مهمة الاستطلاع كتيبة من الدبابات الخفيفـة سريعة جداً ومجهزة بعتاد ممتـاز لتأمين الاتصال والقيـام باعمال المراقبة واشغال الميدان .

لواء مشاة قوامه كردوسان وكتيبة قناصين ، ويتألف سلاحه من خمسين قطعة مواكبة وخمسين مدفعاً مضاداً للدبابات وستمئـة مدفع رشاش بين ثقيـل وخفيف ، ويكون مجهزاً بادوات خاصة لحفر الخنادق والملاجىء وبألبسة وانسجة ملونة وادوات التمويه الفنية بحيث لا يظهر منه للعيان ويقع تحت الضربات سوى اشياء صعبـة المنال . يعهد الى هذا اللواء بتثبيت ما تكون الدبابات قـد حققته بقوتها الهائلة ولكنها قوة طارئة . ويتم التثبيت باحتلال النقـاط وتطهيرها وتنظيمها .

اما مجموعة النيران المتحركة الى الحد الاقصى ، وذات المـدى القصير ، والتي يرتجلها المشاة والدبابات في الفرقة المدرعة بتنـاسق تام ، فلا بد من تغطيتها ، مهما تكن الابعاد والمسافات ، بنيران

اكثر دقة . يسند هذا الدور الى المدفعية التي يكون منها في الفرقة المدرعة قطعات لا غنى عنها في اعداد الهجوم ودعمه دعماً مباشراً وحمايته من قرب ومن بعد وفي اخراس بطاريات العدو .

تضم الفرقة كردوسين يستخدم احدهما المدافع الثقيلة والقصيرة المدى ويستخدم الآخر مدافع خفيفة نسبياً ولكنها ذات مدى بعيد . ويتألف من الكردوسين لواء قوي تكمله مفرزة للدفاع ضد الطائرات . ويمكن هذا اللواء ان يقذف في ربع ساعة والى مسافة عشرة كيلومترات بنحو من مئة الف كيلوغرام من المتفجرات .

فالفرقة المدرعة تشتمل اذاً على ثلاثة الوية يتم بعضها بعضاً . وتعززها كتيبة هندسة تقوم باصلاح الطرق والمعابر او بانشائها ، وكتيبة اخرى تابعة لوحدة المواصلات البرقية والهاتفية . ويكون لها مفرزة خاصة تناط بها مهمة الاستطلاع ، ويكون قوامها ، اي المفرزة ، عدد محدود من الدبابات الصغيرة ذات السرعة الفائقة ، وعناصر تنقلها الوسائل الآلية في اثر الدبابات لتقاتل راجلة عند الاقتضاء ، ومركبات خفيفة لتأمين الاتصال بين العناصر المستطلعة والقوات الرئيسية . وعلى الجملة يراعى في تشكيل المفرزة اختيار عناصر قادرة على الاحتكاك بالعدو ، وعلى الثبات الى حد ما في جبهة معينة وتغطية الجناح بعض الوقت والمشاغبة على العدو ابان تقهقر القوات الرئيسية .

وتشتمل الفرقة ايضاً على فوج جوي للاستطلاع معد ، لا للعمل في فترات متقطعة لحساب مجهولين ، بل لنقل المعلومات باستمرار

الى قائد معين ، ولمواكبة رفاق يظلون هم اياهم في المعركة ، وللارشاد مدفعية مألوفة لدى الفوج . وهكذا يكون للوحدة الكبرى ناظراها .

بيد ان تكتل القوات وحجمها يظلان عظيمين رغم السرعة والحماية والانتشار التي تتيحها للمقاتلين المحركات والدروع والسلاسل . ويمكن العدو ، اذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة ، ان يحس بسهولة اقتراب الآلات المدرعة لانها كبيرة الحجم تترك آثاراً واضحة وتحدث جلبة وضوضاء . وعلى هذا يجب ان تموه الوحدة الكبرى تمويهاً تكون معه في مأمن من المفاجآت . والتمويه فن قديم كالحرب نفسها ، طبق جزئياً ابان الحرب العالمية الاخيرة (١٩١٤ - ١٩١٨) ، ويجب ان يكون في الحرب المقبلة عنصراً جوهرياً من عناصر المناورة بحيث يكون له من الاهمية ما للنار والحركة .

يمكن القول ، دون مغالاة ، ان بحوثاً دقيقة يسودها النظام في هذا الحقل ، لكفيلة باعطاء نتائج جد باهرة ، مع العلم ان تقليد المقاتلين والاعتدة ، وتلوين الاماكن السالكة ، ومسخ المناظر ، وتغيير الالوان وفقاً لما تقتضيه المسافات والمناطق وحالة النور ، كل هذا ليس شيئاً اذا قورن بالمحركات التي لا صوت لها ، وهو ما يمكن تحقيقه في سهولة بصنع اجهزة تفي بالغرض ، واذا قورن بالدخان والغيوم والضباب الاصطناعية التي يمكن نشرها ونقلها واعطاؤها كثافة معينة وفقاً للظروف ومقتضيات الحال .

بيد ان التمويه الذي يستهدف ستر كل شيء عن حاستي النظر والسمع عند العدو ، ليس بالتدبير الكافي . بل يجب تضليل الخصم

بامارات كاذبة : خلق ما يشبه التجريدات العسكرية ، انشاآت وهمية ، اضواء خداعة ، جلبة مصطنعة ، موجات اثيرية مضللة .

تشتمل كل فرقة على كتيبة للتمويه اخصائية في هذا الفن ومجهزة بالوسائل اللازمة لخلق ما يشبه الوحدة الكبرى .

يتضح مما تقدم ان جيش الهجوم يتألف من ست فرق معدة للعمل في خط النار . ويلحق بهذا الجيش فرقة خفيفة للاستكشاف واعمال الطليعة لا يختلف طرازها عن طراز الفرق الست الرئيسية الا انها تجهز بآلات اخف وزناً وبالتالي اقل حماية ، وبمدفعية غير ثقيلة وقوات راجلة تتحرك بسرعة لانها مسلحة بعدد من المدافع هو اقل مما يجب ان يسلح به المشاة . ويشتمل جيش الهجوم اخيراً على احتياطي عام قوامه : لواء من الدبابات الثقيلة القادرة على مهاجمة التحصينات الدائمة ، ولواء مدفعية من العيار الكبير ، وكردوس للهندسة ، وكردوس للاشارات والمواصلات ، وكردوس للتمويه ، وفوج جوي للاستطلاع وفوج آخر للقنص والاعمال العادية .

وهكذا يكون لجيش الهجوم ثلاثة اضعاف ما كان للجيوش الفرنسية في آب سنة ١٩١٤ من قوة النيران ، وعشرة اضعاف ما كان لها من السرعة وحماية لا تقبل المقارنة . ومتى عرفنا ان هذه المزايا كلها يمكن الافادة منها دفعة واحدة على جبهة لا تزيد مساحتها على عشر جبهة سنة ١٩١٤ وان جنود الجيش المحترف يستطيعون ان يستخدموا اسلحتهم على اوسع نطاق ، يمكننا ان نكون

فكرة عن عظمة هذا الجيش وقوته .

٢

يحتاج هذا الجهاز الآلي المخيف بنيرانه وامكانياته الهجومية وسرعته وتنكره الى مئة الف رجل لتسييره . وقد اعتمد الالمان هذا الرقم في انشاء جيشهم المحترف ، واعتمدت الولايات المتحدة وانكلترا رقماً مماثلا . ومنذ عهد هنري الرابع الى اليوم درجت حكومات فرنسا على استبقاء قوات هذا عددها تحت السلاح ، وهو استمرار جدير بالملاحظة .

يجب ان يكون جنود الجيش المحترف شباناً لان التدريب العسكري الذي يخضعون له هو من القسوة والتنوع بحيث يتطلب عضلات مرنة واذهاناً حاضرة . واذا كان نوع المهام التي تلقى على عاتق الجيش المحترف يقتضي من القيادة خططاً حكيمة وتدابير مدروسة جيداً (لانه لا تجوز المجازفة برأسمال محدود) فهو يتطلب من المنفذين صفات الفتوة : الميل الى المجازفة ، والانفصال السهل عن العادات والمصالح والعائلة . ومن الضروري ان يخدم الجنود المحترفون تحت السلاح مدة كافية ليستوفوا تنشئتهم الفنية والخلقية ، على ان لا تمتد خدمتهم امتداداً تتحول معه المهارة الى نوع من الدأب ، فيقومون بعملهم على وتيرة واحدة .

يكفي تدريب الذين يجندون في العشرين من سنيهم مدة ست سنوات ، فيتألف منهم بانتهاء هذه المدة الملاك العامل في وحدات الاحتياطي والرديف ، ويكونون ، بالنسبة الى المجندين الجدد ،

جنوداً عتاقاً في عنفوان الشباب . يرتاب بعضهم في امكان العثور بين الفرنسيين في ايامنا هذه على عدد المحترفين المطلوب اي بمعدل ١٥ الف رجل في السنة . ولا بد من الاعتراف بان الماضي يعزز هـذا الاعتراض ، ففي السنوات التي سبقت الحرب العظمى الماضية لقينا صعوبة في تجنيد ضباط الصف المحترفين . ذلك ان المواطنين كانوا وقتئذ يحلمون بان يعيشوا مستقلين ، يملكون العقارات من اراضٍ ومساكن . وكان التضييق وسوء الحال والعزلة المفروضة على « الجنود المساكين » تنفر الرأي العام من الجندية .

أجل ، كان الانخراط في الجيش وقتئذ ضرباً من المجـازفة البلهاء ، وكان كذلك جري المجندين بمحض اختيارهم في ميادين المناورة ، وقبولهم سلفاً الانسلاخ عن عيالهم والابتعاد عنها ليمشوا الى ملاقاة الخطر اينما كان . ولا يعني هذا ان الجهاز الحربي عندنا اصبح عاجزاً عن التأثير في الجمهور بعظمته المشرقة تأثيراً لا يسلم منه احـد ، ولا ان الفرنسيين لا يعترفون بضرورة صيرورتهم اقوياء بعد النكبات التي حلت بهم . ولكن مع ذرفنا الدموع في عرض ١٤ تموز ، وانشادنا ابيات « ديروليـه » (١ وهتافنا « ليحيَ بولانجه » ، فاننـا لا نقتصد في السخرية من اصحاب الرتب بين العسكريين حتى ولا في اهانتهم . الم ير المتساهلون بيننا في الجنرال « بوم » ، والكولونيل رامولو ، والادجودان فليك ،

---

١) شاعر فرنسي ورجل سياسة اشتهر بمواقفـه الوطنية في بدء الجمهورية الثالثة .

والجندي كامبرت نماذج مضحكة ولكن حقيقية ، للعناصر التي لا نفع منها وتعد عالة على مختلف الرتب ؟ يجب ان تكون الغرسة العسكرية عندنا ذات حيوية عظمى والا ما استطاعت البقاء وسط هذا الجو غير الملائم .

ان هذه الغرسة لتجد في اتجاهات اليوم ما يساعدها على النمو ، لان ما فقده النظام العسكري من مقدرة على اجتذاب الجمهور ومن اعتبار رسمي ، قد بدأ اليوم يستعيده اضعافاً مضاعفة بطرق غير مباشرة . والواقع ان احوال المعيشة ومن ثم العادات فالشرائع ، تعيد الى الجماعات الفرائض والسلطة والميزات التي كانت حتى الامس القريب تعود الى الفرد وحقوقه واستقلاله . فالمجتمع الذي يتكتل ينحني امام السلطات المطلقة ، ويعمل جملة باجور محددة وبموجب نماذج لا شأن له في اختيارها ، ويطالب بازياء واسعار ومدارس موحدة ، ولا يبقى ثمة تناقض بينه وبين الجيش ، وصرامة النظام العسكري والشارات والبزات . ذلك ان المزاحمة والسرعة والتضييق التي يتميز بها عصرنا هذا تتضافر كلها على فرض هذا النوع من الاكراه الذي تخضع له القوى المسلحة . وكما يخضع الجندي باستمرار لما يفرضه النظام ، لم يبق بين الناس من هو سيد نفسه . وازاء ما نراه من اشراف الدولة على الصناعة ، وتوجيهها للاقتصاد وتحكمها بالآراء ، يميل بعضهم الى الاعتقاد ان النموذج العسكري في التنظيم يوشك ان يصبح رمزاً للعصر الحديث . ومهما يكن من امر فالثابت ان الحرفة قد فقدت الطابع الشاذ الذي كان

يجمدها ويجعلها بمعزل عن المواطنين . وقد اصبح في الامكان من الآن فصاعداً ان تجذب الى الصفوف شبيبة متلهفة على الانتظام فيها ، بشرط ان يقوم الجيش على اسس وقواعد تتمشى والطباع التي يتميز بها الجيل الحالي .

يجب الاهتمام اولا بارضاء ميل الجنود المحترفين الى الاسلحة الآلية الجميلة ، وتوضع تحت تصرف سواهم الرشاشات التي تتوقف عن العمل لعطل يطرأ عليها والمدافع التي يعلوها الصدأ والمركبات التي يثير منظرها الضحك ، واجهزة الهاتف التي امتدت اليها يد الاصلاح مئة مرة ، والطائرات التي لا يزال صلاحها للاستعمال موضع الاخذ والرد ، والدبابات التي ادركها العياء .

هذا التمييز وحده كفيل باجتذاب المتطوعين . ففي مجتمع يقبل على الآلة كمجتمعنا الحالي ، يعمل الاخصائيون ، عسكريين كانوا او مدنيين ، دون اندفاع أو بهمة لا تعرف الكلل تبعاً لرداءة نوع الادوات بين أيديهم او لجودته . ومن أبرز الشواهد على ذلك ان مجرد انزال البحرية الفرنسية الى البحر خلال الاعوام الخمسة عشر الاخيرة اجمل نماذج الدوارع قد أثر في قيم ذوي الرتب من رجال الاسطول اكثر من التعليمات والنشرات التي لا يحصرها عد . ولا تسل كم تعززت ثقة الطيارين الايطاليين بانفسهم وبطيرانهم على اثر النجاح العظيم الذي اصابته طائرات المارشال بالبو المائية !

ان الجيش المحترف ، هذا المصنع العصري المجهز بالف آلة

متداخلة للضبط والاحكام والسرعة ، يحركها رجال حاذقون ، لقمين باثارة اهتمام الشبان . ويخولهم في الوقت نفسه هذا النوع من النفوذ الذي تخوله الآلات المختارة الذين يستعملونها .

وما من ريب في ان الحرب الحديثة تتطلب تخصصاً مطرد النمو ، شأنها في ذلك شأن الحياة الاقتصادية . وقد يتبادر الى الاذهان ان تدريب المقاتل على اداء مهمة خاصة بالذات من شأنه ان يجر الى نوع من التدريب الممل (الموحد السياق) . ان ظواهر الحال تؤيد هـذه الملاحظة ، ولكن الواقع يجردها من كل قيمة . ففي المعركة لا يقوم مقاتل بعمل مجدٍ الا اذا كان على اتصال وثيق بكثير من الرفاق الذين يعرفون الدور المسند اليه ويعرف هو المهام الموكولة اليهم ويستطيع عند الاقتضاء ان يؤديها على أكمل وجه .

غداً يصبح المقاتل الراجل في الجيش المحترف رامياً من رماة النخبة ــ باسلحة منوعة ــ ولكنه يصبح ايضاً مراقباً وملاحظاً وممهداً للطرق امام الجيش ، وواحداً من رجال المدفعية والراديو ، وسائق سيارة ، وخبيراً في فن التمويه . فتعليم الجندي المحترف يتعـارض ، في تنوعه ، والتـدريب الذي كان يخضع له جنود فريـدريك ، وتختلف ساحات التنشئة العسكرية المعـاصرة عن « مدارس » النظام القديم بقـدر ما تختلف حياة السائق الذي يقود سيارته القوية على طرق تتجـدد باستمرار عن العمل ذي السياق الواحد الذي يقوم به الرجل المولج بتحريك حجر الرحى .

وفضلاً عن هذا ، يكفي لتعليم القوات المحترفة في ايامنا هذه

ان نذكي فيها هوس الروح الرياضي ، مستثمرين الميل الذي يحدو شبابنا الى الاسراف في اظهار القوة والبراعة في شتى الحلبات والساحات ، وحرصهم على احراز قصب السبق ، والشهرة التي يغدقها الرأي العام على الرياضيين الابطال ، وعلى الجملة يمكن استثمار ما ينفق هذا الجيل من قوى وما يحس من كبرياء في المجهود الجسدي وحلبات التنافس .

وجوهر القول ، ما من حرفة تبدو اكثر تمشياً والروح الرياضي من الحرفة العسكرية . فكل حركة يأتيها الجندي تتطلب مهارة وقوة وضبط نفس . وكل عمل حربي هو امتحان اجماعي يتطلب انسجاماً تاماً بين جماعات طيبة من المقاتلين . ان النفحة الجديدة التي ترتفع بقيم المحترفين الى الذروة هي التي تجعلهم حريصين على احراز نتائج مطردة التحسين من الاسلحة والآلات ووسائل النقل والمواصلات والمراقبة ، وعلى بلوغ درجة الكمال في الرماية وقيادة المركبات وتمويه الاهداف .

وبديهي ان يستدعي تطور هذا شأنه ادخال تعديل على اساليب النظام العسكري بحيث تصبح اكثر تمشياً ومقتضيات الحال . فنظام التدريب والترقية الشامل الذي يطبق على عناصر يأتي بها الى الثكنات اسلوب الخدمة الجبرية ، لا يصلح اساساً لتدريب المتطوعين وتصنيفهم . فبدلا من اسلوب الاكراه المعروف يصار الى اقامة سباق دائم ، ويبطل الترقي ذو السياق الواحد وتستبدل منه مباريات دورية تتخذ نتائجها اساساً لاغداق الشهرة

والمكافآت على مستحقيها . ويحل محل النظام المائع والقليل الوضوح الذي يتطلب حسن النية من الادنين ، والرضى وحسن الالتفات من الاعلين ، نظام المباريات والتنويهات العلنية ولوحات الشرف . وهكذا نلقي في حقل التعليم الحربي ، بفضل عزة النفس الرياضية ، احدث خميرة بين خمائر النشاط البشري .

التقلب ، والضجر ، والقلق : ثلاث كلمات لخص بها باسكال احوال البشر ووصف مسبقاً ولوعهم بالاسفار وتمكن هذا الميل منهم حالما تصبح وسائل الانتقال السريع في متناول ايديهم . فبراح المكان ، والابتعاد عما هو مألوف التماساً لكل جديد من اسباب المعيشة ومقوماتها ، هما جل ما نصبو اليه في هذه الايام ، وربما كانا وهمنا الاكبر . ولا نحسبنا بحاجة الى القول ان حرفة السلاح هي اكثر نواحي النشاط ارضاء لهذه النزعات لانه لا تمكن تنشئة قوات مختارة الا على اراض منوعة . اما السكن في الثكنات والمناورات المتكررة باستمرار على ساحات واحدة ، والسير على طرق طويلة لا فارق بينها ، والاقامة في معسكرات ثابتة ، هذا الاطار المحلي الذي يجري ضمنه ، سنة بعد اخرى ، تدريب الوحدات العسكرية وتعليمها ، لا يمكن ان يألفه رجال النخبة الذين اختاروا الجندية مهنة لهم .

ان هؤلاء السياح بحكم الحرفة يجدون ما يرضي نزعتهم الى السفر ويألفون التقلبات الطقسية والتنوع الزماني والمكاني بفضل التنقل المستمر بين السهل والجبل والغاب والبحر ، متمركزين في

نقاط غير مطروقة وسط ظروف واحوال شاذة للقيام باتفه التمارين متنبهين دائماً لئلا يفاجأوا بالمنحدرات والادغال والاوكار ووجهات السير .

يجند بسهولة « هؤلاء الاساتذة » العزاب الخالو البال المعنى بغذائهم ولباسهم عناية خاصة ، المحسودون على هذا العدد الذي لا يحصى من المحركات والاسطوانات وجاذبات الصوت والمقاييس يستعملونها كلما دعت الحاجة ويجوبون البراري من نيسان حتى تشرين الثاني ويدورون حول فرنسا في اثناء قيامهم بالمناورات والتمارين . اما درجة الكمال الفني التي يمكن المتطوعين ان يبلغوا اليها فالقول انها عظيمة ليس من الغلو في شيء . نعم ، استخدمت فرنسا في الماضي وفي عدة مناسبات جيوشاً محترفة ، بيد ان هذه الجيوش ، الا بعض وحدات صغيرة ، كانت تعبأ بالاكراه الشرعي او يكون قوامها جنود مأجورون ، تشتد حماستهم وتتراخى اما تبعاً لصرامة النظام وتساهله ، او تبعاً لضخامة الاجر المدفوع وحقارته ، فيبذل الجندي المأجور الجهد الذي يتناسب ومرتبه . ولا بد من الملاحظة ان التبرم بالرقم السيء والحنين الى الحقل ومسقط الرأس ، او الندامة على العمل الطائش وتكدر المرء من نفسه ، عوامل لا تؤهل لاعمال بطولية يتجلي فيها الاخلاص الاكبر باجلى مظاهره . واذا كانت الجندية قد جعلت من هؤلاء المقاتلين ابطال « فونتنوا » و« كونستنتين » و « سباستبول » أفلا يحق لها ان تنتظر الشيء الكثير من مئة الف فتى أحسن اختيارهم وانضووا تحت الاعلام

بملء رضاهم وتلبية لهاتف هتف في داخل كل منهم ؟

٣

بيد ان التفاهم الذي امكن تحقيقه بين روح العصر والجندية لا يجرد هذه الحرفة عن الطابع القاسي والشاق الذي يجب ان تتسم به . سيكون لجيش الغد « جرحه المقدس » فيتعرف المنخرطون فيه على شظف العيش والعبودية ، وينفرون من حياة الترف ، ويأبون على انفسهم ان يبدوا في الطرق اشخاصاً يستلفتون الانظار بمظهرهم ومسلكهم . ولن يكون لهم غرام يشغلون به قلوبهم ، ولا مسكن هو ملكهم الخاص .

سيكونون ، تبعاً للاتجاه ونوع العمل ، عرضة للقسر في اجسادهم ونذراً للتعب وشتى ضروب الحرمان وتقلبات الطقس . وفي الحرب تسقط منهم الضحايا الاولى ويكونون الاكثر بذلا . هذا هو الواقع ، فالجندي ينشىء نفسه في المحنة ، ولا يمكن جعل الجيش ذا قيمة والثمرة ذات طعم لذيذ الا بمخالفة الطبيعة . ومقابل هذا يؤمن الاحتراف للجنود لولب القوة وعوض التضحيات ، عنيت الروح العسكري الممتاز .

فالروح العسكري يعطي المحاربين المنضوين تحت لوائه اعظم درجات القوة . نعم ، هناك اهواء وشهوات قادرة على اثارة حمية الجماهير لوقت محدود ، ولكن القوة لا تثبت الا حيث يكون ميل الى حياة التجمع وحرص على العمل المشترك واندفاع الى التواري في سبيل مصلحة الكل . وليست الالفة وحدها هي التي تجعل

الكتائب متراصة ، فهناك ايضاً المباهاة بنوع العمل التي تحبب الى المجندين شر العذابات وتكسوها جاذباً خيالياً . ذلك ان هذا النظام المستبد يشوه الافراد ليحسن تكوين المجموع ويوزع المكافآت على الجميع ، ويرفع مكانة الذين يقسو في معاملتهم . انه مرارة السلك وحلاوته .

هذه هي القوة الكامنة في خميرة النشاط الاجمالي ، وهو ما يؤمن لها الخلود والشمول . ان اللاقونة التي صنع منها التضامن الوثيق بين جحافل العصور الخوالي ، قد ظهرت مجدداً بين حملة الاقواس الانكليز في « كريسي » والرماة البروسيين في « لوتين » والقوات الفرنسية في فردون . فالجيوش مهما تكن متفاوتة ، تؤلف بغرائزها وتقاليدها المشتركة « دولية » حقيقية . ان في هذا لرأسمال ادبياً لا يسع شعباً من الشعوب ان يتخلى عنه دون ان يجره هذا العمل الى التخلي عن ذاته . ومن هنا نرى ان الدول تتعهد الروح العسكري ، الا في فترات الجنون التي يحفر فيها شعب من الشعوب قبره بيده ، كما تتعهد العائلة والعمال والميل الى الاقتصاد . اما اذا تحولت عن هذا الروح تحولا موقوتاً على اثر انقلاب في الآراء أو في المؤسسات ، فانها لا تلبث ان تعود اليه عاجلا أو آجلا . لقد رأينا الجمعية الوطنية (الكونفانسيون) تقدر فضائل الجندي ومزاياه ، وقد نالها من جانب المجلس التشريعي الاهانات والتهديد والوعيد . وعمد معارضو الامبراطورية ، الذين أصبحوا زعماء الجمهورية ، الى خلق كراديس ممتازة مع انهم وهم

بعيدون عن الحكم كانوا يطالبون بجيش ليس له شيء من مقومات الجيوش . ورأينا السوفيات يكرسون الف جهد لاعادة انشاء الجيش الروسي بعد ان امعنوا في افساده وتقطيع اوصاله .

لا مشاحة في ان الجيش المحترف يضع اصلح تربة تحت تصرف الروح العسكري . يبقى ان يتكون من هذه المجموعة من النيات والمشاعر قوة حربية عملية . فالنزوات البشرية لا تحقق عملا منظما ومجدياً ما دامت مبعثرة لا تربط بينها رابطة ، بل ينبغي لها ان تتبلور ضمن اطار معين . لهذا تتسم الوطنية دائماً بطابع محلي ، وتشيد كل ديانة جديدة هياكلها ، وتخلق الجندية روح التضامن في الوحدة العسكرية .

والواقع ان ما يقدمه الافراد من جوهرهم الى النظام الحربي وما يحملونه اليه من احلام ومشاغل ومطامح ، يتلاشى كله في وحدات عسكرية محدودة . فالجيش هو في نظر معظم الجنود كون قائم بذاته ، بل هو جوهر واسع لا يقع تحت حصر ، اما الكردوس فيرى ويقاس ويمكن التعرف عليه ، يجد فيه الرجل مكاناً له ويبرز بين اقرانه . وقد جرت العادة ان يقال في تعريف واحد من الجنود : « انه ينتمي الى الفيلق الفلاني . » وجدير بالملاحظة ان ناحية الضعف في حرفة السلاح تجد في هذا التكتل العضوي غذاء مختاراً ، ذلك ان الميل يبديه الفرد ، رغم ضعفه وضآلة شأنه ومروره السريع بين رفاقه ، الى المساهمة في تقوية وحدة عسكرية مألوفة لديه ، واداء نصيبه من

الفرائض الآيلة الى رفع شأنها واستمرارها وتألقها ، ان هذا الميل يستثيره ويرضيه . وفضلاً عن هذا فالطابع الجمالي في الشؤون العسكرية يؤثر في الاحساس اعمق تأثير . ففي الكردوس يكتشف الجندي الطابع المذكور بصورة مباشرة : مشاهد مهيبة هو احد القائمين بها ، رموز مثيرة يتاح له ان يراها وان يلمسها ، انغام موسيقية مؤثرة تنشد معها نفس تمتزج نفسه واياها .

من اجل هذا كله حرصت التقاليد على اعطاء كل فيلق من الفيالق طابعه الخاص به . ولئن تكن اختبارات المدرسة القديمة قد اقرت هذا التمييز وارتاحت اليه ، فمقتضيات العصر الحالي تفرضه فرضاً . ذلك ان وجود الكراديس هو اليوم اكثر من اي وقت عنصر لا غنى عنه في تقرير القيم الحربية ، فبينا يزداد الخطر الكامن في ميادين المعركة نمواً وانتشاراً ، متطلباً بعثرة المحاربين كتلا صغيرة ، تزداد الحاجة الى تكاتف الجنود تكاتفاً معنوياً . كانت سلسلة من حديد تضمن بقاء الصفوف متراصة في القبائل الغولية ، وكان كل ما يطلب من كتائب فريدريك الاكبر ان تحافظ على النظام وتنتظم في صفوف مستقيمة ، وتقوم بالحركات الاجمالية ، وتطلق النار دفعة واحدة كلما صدر اليها الامر بذلك . وقد اضافت الثورة الفرنسية الى هذه العناصر الاندفاع الاجمالي ، ثم جاء دور التقدم بحضائر صغيرة ، والانتشار بافواج متراصة من المشاة او بخطوط من المدفعية . وهي اساليب اعتمدت حتى في

الحرب العظمى .

نعم ، كان الارتباط في الحروب ، والحروب الاخيرة منها ، يحقق تفاهماً مبدئياً بين الافكار والعزائم ، انما كان يغلب عليه الطابع الجسدي بين رجال يشاهد بعضهم بعضاً ويتفاهمون بسهولة ولا يلقون صعوبة في وضع اليد باليد . لم تكن ثمة حاجة الى اكثر من الاشارة والصياح . اما في الحرب المقبلة فكل حضيرة مدعوة الى القتال وحدها ، على ان لا تقوم بعمل ما دون مساعدة الرفاق ، وهي مساعدة تأتي من بعيد برسائل مقتضبة ومغفلة وضمن مواعيد غير شخصية . وعلى الجملة تكون الواسطة الوحيدة للتخاطب والتفاهم اشارات وحركات متفق عليها سلفاً .

ان آلة الحرب الحديثة تتيح من الناحية الفنية جمع هذه الوسائل المبعثرة . الا ان هذا لا يمنع ان يظل الانسان العنصر الغالب في كل ما له علاقة بالحرب واساليبها . فالتطور الذي طرأ على المناورات العسكرية يتطلب اليوم اكثر من اي وقت تضامناً عسكرياً قوياً . وهو تضامن لا يمكن تصوره في وحدة تعمل خارجاً عن القلب بدون الروابط التي نسجتها حياة الكراديس والتعارف والعادات المشتركة الخ ...

يجب ان يجعل الجيش المحترف وحدة عسكرية ذات نظام لا ليونة فيه ، ولا يكون خاضعاً لتدابير النقل والتوزيع ، بل يكون جزءاً من السياسة العسكرية الرامية الى التنظيم وتحديد المهام وتعيين وجوه الاستعمال بحيث تتسم الوحدة المحترفة بطابع قوي من

الاستقرار والجدة ، فتبطل التبديلات التي توحي بها المصالح الشخصية ، ويبطل تغيير اسماء الوحدات ، ونقل الجنود من كردوس الى آخر ، وانقلاب الخيالة الخفيفة خيالة مدرعة ، والقناصة قوات معدة للعمل في خط النار ، وتغيير الوان شارات الامتياز وشكل الرايات ، ويوضع حد لتبادل الاعلام في « الانفاليد » ، ولا يبقى ثمة أثر للقطعات المركزية والرئيسية ، والفصائل البعيدة ، والاخصائيين المغمورين ، والمنفصلين الذين لا يعودون الى وحداتهم ابداً ، ويزول التعليم الذي يمارس في الف معسكر ومدرسة ومركز ، ولا يبقى من أثر للمدربين الغرباء عن السلك ، ولوحدات المناورة المؤلفة من كل ما هب ودب ، ويحل محل الصفوف المتفرقة باستمرار ، والدلاء التي ما تكاد تمتلىء بالمجندين حتى تفرغ ، وتعاقب الرؤساء والرفاق ، كراديس حقيقية ذات هيكل ثابت وتقاليد ورموز مستمرة ، متجددة تدريجياً بوصول عناصر ورحيل عناصر قليلة العدد ، ملتئمة دائماً سواء في الثكنة وفي الخلاء ، تحيا حياتها الداخلية الخاصة وتبدو عليها مخايل التعاطف المشترك .

ومتى وجد الروح الذي يجب ان يسود الوحدة العسكرية يفسح امامه مجال العمل ، ويكون للتنافس أثره البارز اذا نقل من الحقل الرياضي البحت وفتح باب التباري على مصراعيه امام الكراديس ، فتضع امتحانات دورية واسعة النطاق الوحدة المحترفة كلها في كفتي الميزان ويدعى كل جندي بدوره الى استعمال اجهزة القتال التي لديه على ارض منتقاة وبالتضامن التام مع سائر الجنود . ويشرف

على المباراة محكمون مجهزون بآلات مصورة وأخرى للتوقيت وتكبير الصوت فتسجل آلاتهم بدقة تامة النتائج المحرزة : عدد الرصاصات والقنابل التي استقرت في الهدف ، اعمال التمويه ومبلغها من الاتقان ، اعمال التنظيم التي تحققت ، الاهداف التي اكتشفها الاستطلاع ، انتظام سلاح الاشارات ، سير العمل في وحدات التموين الخ ...

ان اعطاء نتيجة هذا التنافس باعلان احتفالي يفعل من اجل التكاتف بين الوحدات ما لا تفعله الانظمة والفرائض مجتمعة . ويؤول تثبيت النتائج بمنح الاوسمة والشارات وبتخصيص امكنة خاصة لوقوف المستحقين في الحفلات والاستعراضات والمعسكرات ، وبجعل الرواتب درجات متفاوتة ، يؤول هذا كله الى جعل الكردوس اوفر نشاطاً وحيوية وتضامناً . ويكفي ان يصار الى تجنيد الشبان على اساس المناطق على ان يوفق بين عزة النفس المحلية وروح التنافس العسكري ، كي تثير هذه المباريات حماسة الاهلين جميعاً . ويكفي ان نشهد الاقبال الذي تلاقيه المباريات الرياضية في مدننا واريافنا كي نهتدي الى انجع وسيلة لاعطاء الروح العسكري روعته الوطنية .

ولكن اذا كان التكاتف والتضامن واجبين في الكردوس فمن الضروري ايضاً ان يكون للفرقة في السلم والحرب شخصيتها الخاصة . فمنذ ان فكر « غيبرت » (١ بتقسيم الجيش وحدات

---

١) ضابط فرنسي وكاتب عسكري عاش ومات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

قادرة على تبادل المهام ، ومجهزة بما يتيح لها القتال منفردة ، مـا انفك منطق المعارك يوسع نطاق الفرقة . اليس هذا نتيجة محتومة لتقدم صناعة السلاح ، هـذا التقدم الذي يقضي شيئاً فشيئاً على استقلال الوحدات كما تدفع الآلة بالصناعة الى التمركز ؟

اما وقد اصبح واضحاً ان التضامن بين مختلف الاسلحة لا بد منه للقيام بعمل مجد وانه لا يمكن الاطمئنان الى نتيجة محرزة ما لم يثبتها المشاة ، وان الجندي الراجل لا يحرك عضواً من اعضائه الا اذا دعمته الدبابات والمدافع ، وان كل مقاتل يصبح اعمى ان لم يقيض له طائرة ترشده وتقود خطاه ، ويسمر في مكانه ان لم تكن هناك وحدة اشارات ومواصلات ، امـا وقد اصبح هـذا التضامن بين مختلف العناصر مبدأً مقرراً ، فمن الواضح ان يصار مسبقاً الى تنظيم الجهاز الذي يعهد اليه بتنسيق جهود هذه العناصر .

لا يكفي ان يكون لهذا الجهاز رئيس وهيئة اركان حرب ، وان يتعرف على الاقسام التابعة له على وجـه التعيين ، بل يجب ان تحيـا الفرقة حياتها ، فهي مؤلفة من قوات متنورة يمكنها ممارسة ما كان عالياً من ضروب الفن . ويجب ان يتاح لاسلحة الفرقة ان تتدرب مجتمعة لا في المعسكرات امام الخرائط ولا في ميادين التدريب فحسب ، بل يصار الى تدريبها تدريباً عمليـاً ومفصلا فتتجمع الوحدات الكبرى كل سنة ولمدة بضعة اسابيع وتجهز بادوات القتال كما لو كانت سائرة الى ميدان المعركـة ، فتطوف المناطق الواحدة بعد الاخرى وهي تقوم بمختلف ضروب المناورة .

التطبيق

ازاء المجهول من حوادث المستقبل ، يتلمس العقل البشري عوناً يستجيره ، ويعتقد العثور عليه في ما سلف من الحوادث . وكما تعود السياسة الى السوابق ، والمتشرع الى العادات ، يجتهد الجندي في ان يستخرج من الاعمال التي تحققت في الماضي القواعد التي تصلح لقيادة خطاه في المستقبل القريب . فاذا كانت الظروف لم تتح له ان يقاتل بنفسه ، يعود الى التاريخ فيسأله ، واذا كان الامر بالعكس يعود الى تذكاراته وذاكرته . وقد رأينا النخبة العسكرية تبني فلسفتها في مطلع القرن العشرين على دراسة حملات الثورة والامبراطورية . ونرى جيوش اليوم تستوحي عقائدها ونظرياتها وانظمتها من اساليب الحرب العالمية الاخيرة .

لا مجال لانكار الفوائد التي يمكن جنيها من اظهار مثل هذا الحرص على العود الى الماضي لمعرفة ما يخبئه المستقبل ، فهذا الميل الطبيعي في الانسان يتفق والرغبة في طبع الاعمال البشرية بطابع الاستمرار وفي رؤيتها تتكرر على الدوام . وفضلا عن هذا

نلاحظ ان رجال الفن عموماً والعسكريين منهم على الاخص ، يفيدون فائدة كبرى في دراسة كبار الاساتذة وروائع الفن ، ولا غرو ففي العظمة ما يجعلها سريعة العدوى . الا انه يجمل بنا الا نتقيد بهذه القاعدة والا ندع التقليد يسيطر على عقولنا وافكارنا ، فليس ثمة ما يبرر الاعتقاد ان نزاعاً ينشب في المستقبل سيكون بينه وبين النزاع الاخير شبه قريب او بعيد .

لهذا يتعين على الذين يفكرون بانشاء جيش مختار ، سريع وقوي ومحمي جيداً ، الا يعودوا الى المبادىء والقواعد والاساليب التي طبقت على جهود الجماهير ابان النزاع الاخير ، فالجبهة المتصلة ، والمهل اللازمة لعمليات الحشد والتمركز والاستعداد ، واستحالة توسيع نطاق الانتصارات المحلية ، قواعد جعلت منها طبيعة الاشياء اساساً للتكتيك العددي ولكنها لا تصلح اساساً للتكتيك النوعي . في حين تتمشى الاعمال المستقلة والمفاجآت وتوسيع مدى الانتصارات مع مميزات آلة الحرب الجديدة . اما اذا كان لا مندوحة عن اكتشاف وجوه شبه بين الحاضر والماضي فليبحث عنها في العمليات التي قامت بها وحدات الخيالة الكبرى في العصور السالفة بدلا من العود الى الجبهة الثابتة والعمليات البطيئة التي تميزت بها الحرب العالمية الاخيرة .

ما كان ليسع جيوش سنة ١٩١٤ ان تعرض للخطر اجنحتها أو مؤخراتها ، وهي البطيئة في سيرها وانتشارها ، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بطرق المواصلات وليس لها من عناصر الاستكشاف سوى

وحدات محدودة المدى . فقد كانت خطوط المشاة والمدفعية معدة تكتيكياً وستراتيجياً لاتخاذ وجهة واحدة ، فان هي هددت من الوراء أو بهجوم جانبي لا يبقى امامها سوى التقهقر السريع . وقد حدث هذا مراراً في صفوف الفريقين المتحاربين ، ومن هنا كان التكتل وكانت الجبهة المتصلة وصار على كل فصيلة من الفصائل ان تؤلف وجاراتها وحدة متماسكة ، ولم يبق مندوحة للفريق المهدد عن تركيز جناحيه على حواجز يصعب تخطيها ، كسويسرا والبحر ، ليتاح له ان يتنفس ملء رئتيه .

ولم يطرأ تعديل ما على مبدأ الجبهة المتصلة بحشر المقاتلين داخل مراكز محصنة ، فقد كان يكفي ان يفتح المهاجمون فجوة صغيرة في خطوط المدافعين كي تنصب جهود هؤلاء على سد الفجوة ووصل ما انقطع ، حتى اصبح شغلهم الشاغل هذا النوع من الترقيع الذي اطلق عليه الفن اسماء متعددة : اللحمة والمفصلة والتراجع المرن أو المطاط الخ ... وكان المهاجم ، اذ يكشف نفسه بتقدمه ، يبطىء في زحفه تدريجياً ، ويكثر من الكلام عن توسيع الفجوات ، ولولب العمليات وتغيير وجهات الهجوم الخ ... وحتى آخر طلقة من آخر مدفع ظل الفريقان يؤلفان جبهتين ملتويتين ولكن غير منقطعتين .

لن يخضع جيش المناورة في المستقبل لهذا الضرب من ضروب العبودية بل سيكون قادراً على القيام وحده ولحسابه بعمليات ذات امد معين ، تغطيه عناصر قوية قادرة على تمزيق الحجب ، وتتيح له

الآلات السيارة والمصفحة ان يتحرك بخفة ومرونة ، فيظهر بسرعة ويختفي بسرعة ، ولا يخضع لمقتضيات التموين في نقاط معينة ، وعلى الجملة يمكن جيش المناورة ان يبدل بسرعة خاطفة مراكزه ووجهته واهدافه .

ينزل الجيش المحترف الى الميدان في اثناء المرحلة التي ينصرف خلالها المتحاربون الى جمع وسائل العمل ويتهيأون للاصطدام الاول ، وتتيح له الميزات التأسيسية التي اختص بها دون سائر الاسلحة ان يحصل على ضمانات كافية منذ اليوم الاول لنشوب الحرب .

ان هذا المبدأ ، مبدأ احتلال الاراضي ، الذي كان سائداً خلال العصور السالفة ، لم يأخذه اساتذة الفن الستراتيجي عندنا بعين الاعتبار قبيل نشوب الحرب العظمى الماضية ، فالسوابق التاريخية كاحتلال جيش لويس الرابع عشر مقاطعة « الفلاندر » فجأة في حرب المواريث ، و « الفرانش كونته » في حرب الاراضي المنخفضة ، واحتلال فريدريك الكبير سيليزيا بضربة معلم ، واعتماد نابوليون خطة نقل القتال الى ارض العدو ، هذه كلها دروس عدتها مدرسة ما قبل الحرب عتيقة وغير صالحة . نعم ، كان اساتذة الفن الستراتيجي عندنا يقولون بالهجوم ، واحياناً بالهجوم وحده ، الا انهم اعتنقوا المبدأ فحسب ولم يعلقوا اهمية على جنسية الارض التي ستكون مسرحاً للعمليات الهجومية ، فالمهم لديهم ان يربحوا المعركة لا فرق عندهم بين ان يترك الالماني يتوغل حتى بروكسل وبين ان يتراجع جيشهم عند الاقتضاء حتى حوض « السين » الادنى

اذا كان هذا التراجع يضع في متناوله جهازاً دفاعياً اصلح . وربما كانت هذه العقلية احد العوامل التي ساعدت القيادة العليا على مواجهة الازمة بشجاعة واعصاب قوية ، بيد انها كلفتنا غالياً في معظم الحالات .

وقد استردت الارض اعتبارها واصبح لها اهمية خاصة بعد ان ارتقت وسائل التدمير والتخريب ، وذاق الرأي العام الأمرين من الغزو والفتح ، وتبينت الشعوب الفرق بين مركز المفاوض الذي لا يحوز رهناً او ضمانة ومركز المفاوض الذي يحتل جزءاً من اراضي الطرف الآخر ، وادركت على ضوء الاختبارات اهمية الدور الذي يمكن ان يمثله بعض المناطق في نزاع مسلح ان بموارده ام بموقعه الجغرافي .

ان خسارة « تيونفيل » و « بري » تحرم فرنسا نصف الحديد الذي تنتجه ارضها ، وقبولنا بانتزاع ستراسبورغ موقتاً من ايدينا يقضي على المدينة بالخراب والدمار لانها لن تسترد الا بالحديد والنار . ويكفي ان يعبر الالماني نهر « الموز » البلجيكي حتى تنتقل المعركة الى ابواب مدينة « ليل » . وان هو احتل « انفرس » وحشد فيها طائراته وغواصاته ، ترتبك مواصلاتنا مع انكلترا عبر مضيق كاليه وبحر المانش . وكيف يمكننا التنقل بحراً بين مرسيليا وافريقيا اذا انتزعت منا جزيرة كورسيكا ؟ واية صلة تبقى لنا مع حلفائنا في اوروبا الوسطى والشرقية اذا افلتت تونس من بين ايدينا ؟ وعلى الضد من هذا يعود علينا احتلال السار بعشرة

ملايين طن فحم في السنة ، ويمنع وصولنا الى الدانيوب اتصال النمسا بالمانيا ، وان نحن بلغنا نهر « ماين » تنتعش آمال التشيك ويشتد ساعدهم . وباحتلالنا « تريف » و « ايفل » نغطي « اللورين » و « بلجيكا » و « لوكسمبورغ » ، وبالسيطرة على « دوسلدورف » يشل « الرور » كله .

وفضلاً عن هذا يمكن ان تترتب على التدخل الواقي ، من الوجهة العسكرية الصرف ، نتائج عظيمة الاهمية وذات اثر بارز في مجمل العمليات . والواقع ان الجيوش الكبيرة تجتاز ازمة او ما هو شبيه بها بانتقالها من حالة السلم الى حالة الحرب ، فمهما بولغ في العناية باعداد التعبئة ، وبتنفيذها ، فانه يترتب على اعلانها انقلاب عام . وينطوي اتفه اضطراب يحصل خلال فترة التعبئة وتوزيع العتاد وانتقال الوحدات من مكان الى آخر ، على محاذير جمة واخطار جسيمة .

وماذا نقول في عمليات النقل التي لا بد منها لحشد المحاربين في المراكز المعينة لهم ؟ تقوم بهذه المهمة خلال اسابيع واسابيع ، قطر وقوافل وسفن يتلو بعضها بعضاً باوقات معينة وفي احوال تجعل هذا الجهاز سريع العطب ، رغم ما يبذل في تسييره من دقة وعناية وسهر . ومما يزيد فترة الاستعداد ارتباكاً ازدحام مناطق انزال الجيوش بالقطعات العسكرية التي لا يمكن نقلها دفعة واحدة وبالاعتدة والمؤن التي تتراكم فيها بانتظار نقلها مجدداً لتوزيعها على اقسام الجبهة . نعم ، تقوم عناصر التغطية بمهمة الحفاظ على اماكن

الاحتشاد هذه ، ولكن انى لها القوة الكافيـة للحؤول في كل مكان دون المحاولات المركزة والمهيأة سلفاً ، وهي مبعثرة هنا وهنا لاغراض دفاعية ؟

يضاف الى هذا كله الاثر الذي قد يحدثه في الجماعات التي لم تحارب من قبل ، ظهور الخطر الداهم جسيماً الى ابعد حد وبشكل يبعث الرعب في النفوس . ففي آب سنة ١٩١٤ تلاشى جنودنا تلاشياً معنوياً امام وابل القنابل وصواعق القذائف الضخمـة ، فقد انهارت دفعة واحدة التصاميم والعزائم والاوهام والتبجحات التي كانوا يتذرعون بها ، تاركة اياهم مروعين وسط جرحى يئنون وجثث رفاق سقطوا صرعى للتو واللحظة .

على المؤرخ الذي يحاول اليوم تعليل البلبلة التي سادت الاصطدامات الاولى ، وتبين الباعث على جمود هذا الصف ، واختفاء ذاك ، وشيوع الفوضى والذعر في صف ثالث ، ان يتصور بادىء ذي بدء الذهول الذي استحوذ على رجال نزلوا الى المعترك مسلحين بالثقة ففوجئوا بما لم يخطر لهم في بال . وبديهي ان يعتبر المحاربون الجدد بما حدث وان يحجموا عن مجابهة اهوال المعركة باساليب بهيمية تنقلب معها الشجاعة تهوراً والبسالة جنوناً ، وان يختلطوا برفاق خبروا الحرب واساليبها وعرفوا اهوالها ، مقتفين أثرهم في ساحة القتال ، متسللين بحذر داخل المنطقة التي يخيم عليها شبح الموت ، وبهذا يتفادون في الغالب الصدمات التي يتعرض لها المحاربون الجدد .

ولكن اذا كان جنودنا قد الفوا جو المعركة شيئاً فشيئاً خلال سني الحرب الاربع ، فلا ننس اننا امتحنا امتحاناً قاسياً والحرب في مستهلها ، وتعلمنا على حسابنا ان الخطر المفاجيء اذ يدهم قوات غير مجربة وغير موطدة العزم ، تترتب عليه عواقب جد وخيمة ، وان جيشاً هجومياً مجهزاً بآلات قوية مذهلة يمكنه ان يفيد من هذه الوضعية بسرعة خاطفة .

ان ما تقوم به قوات النخبة ، المستعدة منذ الساعة الاولى لان تضرب متعاونة والسلاح الجوي ، ومدعومة عند الاقتضاء بالقوى البحرية ، والتي تستطيع ان تعمل وحدها على جبهة عمقها مئة كيلومتر ، ينطبق تمام الانطباق على القواعد العامة والعسكرية التي تجعل من احتلال الاراضي والسبق الى العمل عنصرين حاسمين في المعارك المقبلة. سنرى قوات النخبة تنتقل بوثبة واحدة من السلم الى الحرب وتضع يدها على ضمانة ذات قيمة ، وتشيع الفوضى والارتباك في صفوف العدو وهو منصرف الى جمع قواه . هذه كلها اهداف محدودة ، شأنها شأن الوسائل التي تستخدم في الوصول اليها ، فليس الغرض من هذه العملية البدائية القضاء على قوى العدو كافة ، بل الغرض منها احراز ميزة ما . ففي الخلافات المعاصرة يسود التماسك وتبادل التأثيرات وتضج الاهواء عند الجماهير متفاعلة دون ما ضابط ، فيحسن بالفريق اليقظ ان يحزم امره ويسبق الى اشاعة الاضطراب ما وراء الحدود .

اننا ما ننفك نحمل آثار الغزو ، واضحة عميقة .

٢

سيكون للجيش المحترف المستقل في حركاته ، جميع الوسائل التي تتيح له الارتجال . وسواء عمل لحسابه او كان جزءاً من كل في معركة عامة ، فالضربات التي يكيلها تكون فورية وغاية في الشدة . وبمثل هذا يبعث « الحدث » الذي كان في كل عصر الشاهد العدل على كفاءة القادة ، والذي قضت عليه كثرة الاستعدادات في الحرب العالمية الاخيرة .

لم يكن بد ، في الحرب الاخيرة ، من تهيئة الارض واعدادها لتصير صالحة لاندفاع موجات الهجوم وتمركز الاحتياطي ، ومن انشاء مواصلات لا يحصرها عد ، واعداد اماكن لتركيز البطاريات واخرى لخزن المؤن والاعتدة ، ومراكز للقيادة ومد شبكة خطوط هاتفية ونقل الرجال والمدافع عبر الخنادق والممرات الضيقة . كل هذا لاجل القيام بعملية تافهة محدودة النطاق والاهداف .

كان اجتياز المشاة مسافة عشرة كيلومترات حاملين اسلحتهم وعتادهم وغذاءهم وادواتهم ، تتربص بهم نيران العدو دون ما هوادة ، وتزل بهم الاقدام على ارض خربة ، كان اجتيازهم هذه المسافة القصيرة يستغرق وقتاً طويلا ويكلفهم مشاق عظيمة . وفوق هذا كان على المدفعية ان تخرب استحكامات العدو بنيران يستمر اطلاقها بضعة ايام قبل ان تنطلق قوات الهجوم على ارض مكشوفة لتضرب مدافعاً قابعاً في ملجأ . ولا مجال للانكار ان الحالة قد تغيرت خلال الاشهر الاخيرة ، فاتاح اعداد الجبهة كلها للعمليات

الهجومية وحشد كميات هائلة من الوسائل في مختلف القطاعات ، وظهور الدبابات التي اغنت في حالات كثيرة عن عمل المدفعية التمهيدي ، اتاح هذا كله شن الهجوم قبل ان يتمكن العدو من اعداد العدة لمواجهته .

ان عامل المفاجأة الذي ظل حتى النهاية من العناصر الشواذ سيكون في حرب الغد قاعدة يتمشى عليها جيش النخبة لانه جهز ودرب لمثل هذا الغرض .

ان نقل الرجال والاعتدة من مكان الى آخر عملية تقوم بها في حرب الغد مركبات سريعة من ذوات المحركات ، تدرج على كل ارض . وقد كانت العملية نفسها تستغرق في الحرب الماضية وقتاً غير قصير لان اذرع الرجال وظهور الدواب كانت تقوم بها على الطرق والدروب وداخل الخنادق . وهكذا كان نقل عشرة آلاف طن من العتاد الى حيث تحتشد فرقة مقاتلة يستغرق ستة ايام بلياليها ويستنفد كل وسائل هذه الوحدة الكبيرة ، وهو ما تقوم به في ليلة واحدة فرقة من الطراز الجديد .

في الحرب المقبلة لن تكون ثمة حاجة الى دنو القوات المعدة للهجوم من المواقع المعادية ما دام خط النار سيكون قوامه آلات مدرعة ، تحتشد مكشوفة وبعيدة عن مرمى النيران ولا تقترب من خطوط العدو الا في اللحظة الاخيرة ، يسترها ظلام الليل او يحجبها ضباب اصطناعي . ولن تكون ثمة حاجة الى عمليات التمهيد المخربة ، فالآلات المدرعة تحمل مدافع قوية وتستطيع بها وبدونها ان

تسحق المنشآت الدفاعية بفضل تركيبها الخاص .

ان الامارات التي كانت تنطبع على الارض فاضحة خطط المهاجم ومشاريعه ، لن تبدو والحالة هذه لعيني المدافع الذي يظل بين الشك واليقين الى ان يفاجأ بظهور الآلات المصفحة داخل خطوطه . وهكذا تكون المفاجأة ، ملكة الفن الحربي منذ القدم ، قد ظفرت مجدداً بالاداة اللازمة لها واستردت بالتالي سلطانها ، بعد ان وضعت على الرف زمناً طويلا من جراء افتقار القوة الى السرعة .

ولكن المفاجأة تحتاج الى تنظيم . ولن يكون هذا بالتكتم الشديد يبديه واضعو الخطط ومنفذوها في احاديثهم واوامرهم وتقاريرهم ، او باخفاء الاستعدادات ، بل يكون بحجب المفاجأة عن انظار العدو وراء ستار كثيف من الخداع . نعم ، يكاد يكون مستحيلا الحؤول دون وصول المعلومات الى العدو في عصر تصرف فيه الشؤون الوف الايدي ، ويملي المال على الناس تصرفاتهم اكثر مما يمليها الشرف ، وتنزع الصحافة الى الحقل الاخباري ، ولا يستغني مشروع عن الخطوط الهاتفية وموجات الاثير والآلات الكاتبة ، الا ان هذا الجهاز المعقد يمكن استخدامه في التشويش على الخصم وجعله في حيرة من امره بمجرد اخفاء الحقيقة وراء المظاهر الكاذبة . ويتم هذا بتسخير وسائل النشر والاذاعة في اطلاق الاشاعات المضللة . ولا يكفي كتم الحقيقة عن العدو بل يجب كتمانها ايضاً عن الذين سيلقى عبء العمليات على كواهلهم مع ما في هذا من امتحان قاس لهم . ولا ريب في ان ترك المنفذين حتى

اللحظة الاخيرة في جهل تام لما هم قادمون عليه ، تجربة يتطلب احتمالها فضائل عسكرية ممتازة . لهذا لا يمكن ان تألف الجماعات الوطنية نظاماً من هذا النوع . اما القوات المختارة ، التي اعتادت الخضوع الاعمى ، ففي وسع قادتها ان يمنوها بالراحة عندما تكون نيتهم منصرفة الى زجها في اتون المعركة ، وان ينفوا خبر الهجوم وهم مصممون على القيام به ، ويعلنوا عزمهم على الزحف شطر الالزاس في حين تكون « الفلاندر » هي الهدف الحقيقي .

ومهما يكن موقف القوى المختارة امام المهام غير المنتظرة ، فلا مندوحة عن القيام ببعض الاعمال الاعدادية الضرورية . في الجبهة يلزم العدو خطة الحذر ، وهنا ايضاً لا يعد حجب الرجال والعتاد عن النظارة تدبيراً كافياً ، فلا بد من اللجوء الى الحيلة لايهامه اننا حيث لا نكون واننا معتزمون امراً لا يدخل في تصميمنا . وهنا يمثل التمويه الدور المسند اليه ، فتختلق وحدات اختصائية امارات كاذبة ، وتنخدع انظار العدو بما يتراءى لها من اشياء لها شكل الجسور والدروب والخطوط الحديدية ، ومنشآت تشبه البطاريات والمراصد وتجمعات تحسبها حشداً ، وخطوط متحركة يخيل لها انها تجريدات عسكرية او قوافل تموين . وتنخدع اذنا العدو بضجيج مفتعل صادر عن سير المركبات وذوي الطاقات وازيز المحركات ، ويصبح شارد اللب ان هو امطر وابلاً من الاشارات وأسمع اوامر وتعليمات سهلة الالتقاط ، ويتفاقم ارتباكه

امام الدخان يغطي قطاعات بكاملها منذراً بهجمات وهمية . وعلى الجملة يستحوذ على المعسكر المعادي قلق مضنٍ ترزح تحت وطأته القيادة وقوات الخطوط الامامية والاحتياطي .

الا ان جيش الهجوم الذي يترك حتى النهاية مبعثر العناصر ، يظل قادراً على التمركز في المكان المعين له في ليلة واحدة ليبدأ هجومه في الغالب عند انبلاج الصبح . تنشيء كل فرقة من الفرق قاعدة تركز عليها عناصر المشاة مدافعها ورشاشاتها وتجثم وحدات المدفعية خلف المشاة وهي على اتم استعداد ، لا للتدخل في قطاعات ضيقة ضد اهداف معينة بالذات ، بل للعمل حيث تدعو الحاجة وتبعاً لتطورات القتال .

تبدأ المدفعية عملها عند تصادم الدبابات . وهو تصادم عديم الاستقرار وجد عميق لان الدبابات تنتقل بسرعة ولان المدافع المعادية المعدة للتصدي لها ليست مركزة على خط معين بل تتخذ وضع بيادق رقعة الشطرنج . وفضلا عن هذا تحشد المدفعية بشكل يتيح لها ان تطلق في كل لحظة وحيث تدعو الحاجة ، نيراناً كثيفة دفاعاً عن قطاع مهدد . وعلى هذا يمكن القول ان المرونة اصبحت ميزة سلاح كان يعمل في الماضي وفاقاً لخطط مرسومة مسبقاً . فحشد الوحدات والقنابل وتوزيع المهام واعداد الطلقات ونقل البطاريات كلها عمليات تخضع لتغييرات مستمرة .

تحتشد الدبابات في المؤخرة متخذة وضعاً ملائماً للقتال . وتكون موزعة على خطوط ثلاثة يتقدمها خط الدبابات الخفيفة التي يحصل

التماس الاول بينها وبين العدو . ويأتي بعده خط القتال المؤلف من دبابات متوسطة وثقيلة . اما جبهته وعمقه فيتكيفان تبعاً لطبيعة العملية ولاهمية المقاومة التي يبديها الخصم . ويضم الخط الثالث والاخير الدبابات الاحتياطية المعدة لسد النقص او لاستثمار النجاح . ويشتمل كل من الخطوط الثلاثة على اقسام متتالية . ويشغل الجهاز الهجومي في فرقة ما ارضاً عرضها ثمانية كيلومترات بما فيها المسافة التي تفصل بين الخط والآخر وبين الدبابة والدبابة . ويكون قوام الجهاز كله خمس او ست موجات من الدبابات اقواها جميعاً الموجة الاولى في خط القتال . فاذا نزل الجيش الى المعترك باربع فرق مدرعة تبرز الفا دبابة دفعة واحدة على جبهة عرضها عشرة فراسخ .

تتحرك هذه الآلات الضخمة للقتال ، فتتخطى الدبابات الخفيفة القاعدة مندفعة بسرعة لملاقاة العدو ، واضعة نصب اعينها تبين اماكن المقاومة الاولى ونوعها ، والبحث عن المسالك الصالحة والارشاد اليها ، وتمويه المسالك الصعبة بالدخان ، وعلى الجملة تتولى الدبابات الخفيفة تغطية القوات المدرعة الرئيسية والقيام لديها بمهمة الكشاف . حتى اذا اخذت القوات الرئيسية المسألة على عهدتها تنسحب الدبابات الخفيفة من الجبهة اما لتنضم الى الجناحين لتسهر عليهما او تقف في المؤخرة لتقوم بدور وحدة الاتصال . ولكنها تعود بعد كل فترة من فترات الهدوء الى القيام بمهمتها كعنصر تغطية واستكشاف .

ولكن ها هو خط القتال يقحم المعركة ، تنتشر الموجات التي يتألف منها اقساماً مستقلة وليس صفوفاً متراصة ، وتناور تبعاً لمقتضيات الحال . ويكون محورها ، في الغالب ، مائلا عند السير بالنسبة الى الجبهة المعادية ، بحيث يمكنها سحق المقاومة التي قد تقوم في طريقها بحركة تطويق ، وتبديل اتجاهها خلال المعركة دون كبير عناء .

تطلق هذه الوحدات الملتوية رشاشاتها على سطح الارض ، محتفظة بقنابل مدفعيتها لاهداف معينة تحاول سحقها بمهاجمتها من الوراء . ويكون الغرض الاساسي من كل مناورة اللف حول الهدف الذي يطلق النار لطعنه في الظهر بينما تغطي المدفعية هذه العملية بنيران تنصب على الهدف عينه وبنشر دخان يحجب الدبابات التي ينبغي لها ان تلازم مكانها .

الا انه لا يجوز باي حال ان تعوق عمليات التطهير البطيئة تقدم موجات الدبابات ... فقوات الطليعة لا تعنى بهذه الناحية الا بمقدار ، فالمهم لديها ان تشق لنفسها طريقاً وتندفع نحو الهدف النهائي باقصى سرعة مستطاعة ، تاركة للعناصر التي تدعمها ان تكمل ما بدأته هي ، فان عجزت هذه العناصر عن اداء المهمة وحدها انبرى لمساعدتها خط الدبابات الاحتياطي ، اما التصفية النهائية فتتم على يد المشاة . ومجمل القول ، يتقدم المهاجم ، في حال ارتطامه بمقاومة عنيفة ، بمجموعات من الدبابات تعمل على جبهة جد عميقة بينما تواصل الموجة الاولى تقدمها وتصب المدفعية نيرانها ليس على

القسم الظاهر من الجبهـة المدافعـة فحسب بل على القسم الداخـلي حيث تـكون الدبابات قد تجاوزت عدة جيوب للمقاومة .

اما وحدات المشاة فتبدأ الزحف تبعاً للنتائج التي تترتب على عمل الدبابات . وهي تتقدم تارة مشيـاً على الاقدام وطوراً محمولة على مركبات مصفحـة . وتنحصر مهمتها في جميع الاحوال باحتـلال الاراضي التي تكون الدبابات قد انتزعتها من العدو ، ويتم هـذا بالاستيلاء على المواقع الواحد تلو الآخر وبتعزيزها وتنظيمها بسرعة . ويتفق احياناً كثيرة ان تجد نفسها امام مقـاومة اخيرة فتنبري للقضاء عليها بمناوراتها الخاصة وبمدفعية المواكبة التي لديها . وتكون خطوطها احياناً بمثـابة الدعامة والملجأ للدبابات وبخاصة اذا استطاع الخصم ان يتبين المفاجأة ويحشد في الزمان والمكان الملائمين وحدات مدرعة ويقوم بهجمات مضادة . وغني عن القول ان الاحتلال لا يتم بصفوف متصلة بـل بمجموعات ملتفة حول آلات وحدات المشاة تفصل الواحدة عن الاخرى مسافة كبيرة ولـكنها لا تحول دون تبادلها المساعدة فيما بينها . ويقوم المشاة بحركاتهم وراء ستار من الضباب الاصطناعي .

وتتقدم المدفعية بتقدم المشاة . انها تفعل هذا من تلقاء نفسهـا بفضل عجلاتها وسلاسلها . فقد انقضى ، بالنسبة اليها ، عهد الانتقال كتلة واحدة وقد كان يفرضه عليهـا في الحرب الماضية ، الارض المخربة وتكوينها الصلب وتموينها البطيء . انهـا لتستطيع اليوم ان تسير في اثر خط القتال الاول ومعها سلاحهـا ومستلزماتها . وهي

قادرة على حماية نفسها بوسائلها الخاصة لانها مجهزة بوسائل مضادة للدبابات وبمدافع رشاشة .

ان قتالا يتطور بالشكل المتقدم يتطلب من الطيران الاستكشافي نشاطاً واسع النطاق . فالوحدات السيارة تحتاج الى اعمال استطلاعية سريعة ، واسرع المعلومات هي التي يؤتى بها بطريق الجو . ولن تكون الطائرات في الوحدات التي تعتمد المفاجأة وخفة الحركة عنصراً مساعداً فحسب ، بل تكون عنصراً مرشداً من الطراز الاول ، فتدل الدبابات على النقاط التي ينبغي لها ان تناور حولها ، وترشد المدفعية الى حيث يجب ان تركز نيرانها ، وتقود خطى الاحتياطي السيار الى الاماكن التي تستدعي الحالة وجوده فيها . وتتيح الطائرة للقيادة ان تحيط بالموقف احاطة شخصية ، لهذا يجب ان توضع تحت تصرف اركان الحرب طائرات خفيفة تحط في كل مكان . وفضلا عن هذا تتلقى القوات البرية ، لاسيما المدرعة ، من السلاح الجوي مساعدة ثمينة في حقل التمويه . فالدخان الذي تنشره الطائرات يستر عن انظار العدو مساحات كبيرة من الارض ، ويحجب ازيز محركات الآلات الطائرة الاصوات التي تحدثها الآلات التي تدرج على الارض .

ان التعاون بين الطيران وجيش الصدام لا يتطلب من الاسراب الجوية سوى عمل مقتصر ومركز ، اما اذا دعي كشافو الجو الى تأمين نوع من الارتباط بين مجهودهم ومجهود القوى الارضية

كأن يعملوا يوماً بعد يوم في القطاع عينه آخذين الفضاء موجات متعاقبة ، فان خطة من هذا النوع لقمينة بان تجعل مهمة الطيارين غاية في الدقة والصعوبة اذ يضطرون الى مجابهة رد الفعل المعادي وهو يتجلى بنشاط المطاردات والمدفعية المضادة ، فضلا عما يعانونه من تقلبات الطقس وما يلحق بطائراتهم من اضرار وما يتجشمونه من مشاق . ويكون الامر عكس ذلك اذا اتيح لهم ان يعملوا مجتمعين ولامد قصير فيعطي تدخلهم نتائج مضاعفة وتتاح حمايتهم لانه اذا استحالت السيطرة على الجو حيث يكون العدو يقظاً ، مستعداً ، فليس ما يحول دون احراز هذه السيطرة فجأة في مكان وزمان معينين .

ولا حاجة الى القول ان العناصر التي يتألف منها جيش النخبة لا يمكنها خوض غمرات القتال متعاونة على النحو المتقدم ومناورةً بخفة ومرونة ، الا اذا توافر لها جهاز للمخابرات سريع . اما اذا اكتفي باساليب السنوات الاخيرة كمد الخطوط واقامة ملقيات النور الثابتة ولاقطات الصوت ، وكالاشارات المتفق عليها وتأليف شراذم الفدائيين ، فستكون نتيجة هذا الاكتفاء وسم القتال بطابع البطء الذي طالما شكونا منه في الحرب الاخيرة . ولكن التقدم الذي يتطلب الخفة والرشاقة في استعمال الآلات الحربية ، يضع في متناول الايدي الوسائل التي تشدها بعضها الى بعض . فمحطات الراديو يمكنها ان تتخاطب دون ان يخالط تخاطبها تشويش ما . وسيكون بعضها ذا موجات معينة فتصدر ما تريد اصداره وهي

مطمئنة الى تفردها في العمل . وهكذا يعطى معظم التعليمات شفاهاً في الحرب المقبلة . فيتعالى صوت الرئيس من كل مسافة وفي كل لحظة . يتعالى من دبابة او سيارة او طائرة او ركن مبلغاً مرؤوسيه وجيرانه تعليماته واوامره وباسطاً لرؤسائه موقف قواته وحاجاتها . ولا ريب في ان اسلوباً كهذا يؤمن للمناورة الوحدة المنشودة بالرغم من اتساع نطاق المعركة وتحرك الرجال والآلات المستمر .

بيد ان تطورات القتال ما تلبث ان تحدث تشويشاً في صفوف المهاجمين ، فما تنقضي ساعات معدودات حتى يسبق بعض الحضائر المدرعة البعض الآخر وتبطىء وحدات المشاة في سيرها وتقف المدفعية ليصار الى اعادة تنظيمها . وقد يتفق ان تضل النجدات طريقها وان تجهد قوافل التموين انفسها في البحث عن الوحدة التي اختصتها المؤخرة بالمؤن . ان تشويشاً كهذا تقتضي معالجته في ميدان المعركة بالذات ، وهو عمل ليس من الصعوبة في شيء ما دام هدف الهجوم الرئيسي معروفاً ومحدداً بشكل يسمح باعادة تنظيم الجيش ولم شعث وحداته المبعثرة . يحدد هذا الهدف تبعاً لنوع العملية وطبيعة الارض ومقاومة العدو المفترضة ، ويجعل بينه وبين القاعدة التي يبدأ منها الهجوم مسافة خمسين كيلومتراً ، وهي المسافة اللازمة لنشر القوات الرئيسية والقيام بعمل جانبي ، ولتدخل الطيران تدخلاً مجدياً لحماية اعمال الاستطلاع . ومتى تم للعناصر المدرعة بلوغ الهدف يمكنها ان تعتمد الآلات الخفيفة في عمليات الاستكشاف وان تحتجب هي خلف غيوم مصطنعة ، بينما تتولى عناصر المشاة والمدفعية

العاملة وراء هذا الستار احتلال الاراضي المنتزعة من العدو .
وبانتهاء هذه العملية تنتهي مهمة الدبابات فتحتل في المؤخرة مواقع معينة استعداداً للتدخل مجدداً . واذا لم يكن ثمة حاجة الى الاسراع باستئناف الزحف ينتظر الجيش المهاجم ان يرخي الليل سدوله كي يعيد تنظيم نفسه ، اما الساعات الباقية من النهار فيصرفها متوارياً خلف الغيوم الاصطناعية حاجباً عن انظار العدو جانباً كبيراً من ميدان المعركة .

٣

يغلب ان يعمد المنتصر الى الاسراع بقطف ثمرات النجاح فور احرازه اياه . فالجيش المحترف يتوغل في المنطقة ابتداء من الهدف الذي امكن بلوغه . وهكذا يصبح « استثمار » النجاح حقيقة واقعة ، وقد كان في الحرب الماضية مجرد حلم . نعم ، اتفق ابان المعارك الاخيرة ان افلح المهاجمون في فتح جيب في خطوط المدافعين على اثر هجوم وحشي .

كان مفتوحاً امام المهاجمين طريق الانتصارات الكبرى التي تحدث في صفوف العدو اهتزازاً عنيفاً بتأثيرها العميق ومفعولها السريع كما يسبب كسر عمود انهيار كاتدرائية من اسسها . ان الفرنسيين الذين بلغوا « فيجي » في ٩ ايار سنة ١٩١٥ واخترقوا الدفاع الالماني في وثبة واحدة جنوبي « السوم » في اول تموز والثامن منه (١٩١٦) وسحقوا العدو على نهر « انكر » في ٩ آب سنة ١٩١٨ ، والالمان الذين لم يبق امامهم في فردون يوم ٢٣ شباط سنة ١٩١٦ سوى

جهاز دفاعي مقطع الاوصال ممزق ، والذين رأوا الميسرة الانكليزية تتفكك في ٢٤ آذار سنة ١٩١٨ وبعد عشرة اسابيع احتلوا شيمان دودام وتجاوزوا شاتوتييري ، ان هؤلاء واولئك كان في وسعهم ان يروا الساعة الحاسمة تدق وان يوسعوا الخطى الظافرة ويتمادوا في الجرأة امام عدو مشلول الارادة يوشك ان يلقي بمصيره بين يدي القدر . ولكن كان يعوز هؤلاء المنتصرين ما يستطيعون معه استثمار نجاحهم . فكيف كان يمكنهم ان يدفعوا الى الامام مشاة تائهين متعبين ، مبعثرين ، لا تقوى المدفعية على اللحاق بهم ولا تستطيع النجدات الاتصال بهم والاوامر الوصول اليهم ؟ اما الخيالة ، هذا العنصر العاجز عن التقدم على ارض قائمة قاعدة ، والمجهز تجهيزاً ناقصاً يجعله سهل المنال في ساحة المعركة ، فقد كانت احلامها في الاندفاع نحو الهدف تتبخر عند اصطدامها والمدافع الرشاشة .

سيكون الامر غير هذا مع جيش النخبة المعد لمطاردة العدو . ويمكننا ان نقيس مدى الضربة التي تسددها الى مؤخرة الجهاز الدفاعي الحديث ، تشكيلة من المدرعات تقذف النيران من الف فوهة ، ان نحن ادركنا مدى الشلل الذي يصيب التشكيلات العادية بعد ضربها من الوراء او من احد جانبيها ، وان نحن قدرنا اهمية بعض العناصر والاسلوب المركزي الذي تعتمده القيادة في مخاطباتها .

تكون مواصلات العدو اول اهداف الحركات الاستثمارية . وهي قاعدة قديمة جداً ساعدها على تجديد شبابها نظام حربي يتطلب

عتاداً عظيما للقيام بابسط العمليات ، ويجعل حياة الجيوش مرهونة بما تستطيع ان تقدمه اليها المؤخرة . فقد احتاج هجوم « مالميزون » الى نصف مليون طن من العتاد والمؤن وهو حمولة الف قطار او مئة الف سيارة شحن كبيرة . ولو لم يسلم « الطريق المقدس » في الحرب الماضية لذهبت فردون وهلك الجيش المدافع عنها . ولو قيض للالمان سنة ١٩١٥ الوصول الى « مولوديشنو » العقدة الحديدية التي كان يستخدمها الروس العاملون غربي مستنقعات « بريبيت » لوجد هؤلاء انفسهم في موقف يائس واضطروا الى التسليم . واي مصير محزن كان ينتظر الجيوش الالمانية المقطعة الاوصال عندما حالت الهدنة دون قيامنا بهجوم اللورين وقد كان موعده ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ؟ كان يكفي ان نضع ايدينا على جسور « الرين » عند كوبلانس وابعد الى الجنوب ، ووراء الجيوش المغلوبة على امرها والمنهوكة القوى كي يسجل التاريخ كارثة « سيدان » هائلة .

في النزاع المقبل سيتاح لنا ان نرى العناصر السريعة تبادر الى اللحاق بالعدو بعد اختراق جبهته ، لتضرب نقاطه الحساسة ، وتقلب جهازه الدفاعي رأساً على عقب . وبهذا يتم التوسيع الستراتيجي لنتائج احرزتها الحركات التكتيكية ، وهو ما عجز عن تحقيقه جوفر وفلكنهاين اولا وفوش وهندنبورغ ثانياً ، لافتقارهم الى الوسائل ، وهو ما كان في الماضي الغاية القصوى لكل عملية هجومية حاسمة ، واشرف ما في الفن العسكري من قواعد واساليب

لان الحرب ، وان تكن هدامة في جوهرها ، فالمثل الاعلى للمحاربين هو دائماً الاقتصاد ، وشعارهم هو الحصول على اعظم نتيجة بأنفه التضحيات ، او قل اذا شئت انه العمل على استثمار الموت والالم والرعب لبلوغ الهدف بسرعة ووضع حد للثلاثة معاً .

ان الاعمال المستقلة ، والمفاجأة والاستثمار التي يتاح للجيوش المحترفة اتيانها بفضل الآلة والمحرك ، لتتفق وخصائص الطيران الحربي اتفاقاً تاماً . فما من شك في ان الاساطيل الجوية القادرة على العمل بعيداً عن قواعدها بما تمتاز به من سرعة خاطفة ، وعلى المناورة صعوداً وهبوطاً وافقياً ، ومهاجمة الاهداف بحركات عمودية صاعقة (الضرب الانقضاضي) ، ستمثل دوراً رئيسياً في الحرب المقبلة .

كان يعوز الطيران عنصر متمم له على الارض ، فالنتائج التي يسفر عنها نشاط الطائرة القاذفة للقنابل تظل اسمية مهما يكن الضرب عنيفاً لان الآلة المحلقة في الجو لا تستطيع استثمار قوتها . اجل ، تفضي الخرائب التي يحدثها الضرب الجوي والرعب المزمن الذي يزرعه الى التأثير في اعصاب العدو ومعنوياته ، الا ان الطيران الذي يتقن التدمير يظل عاجزاً عن الاستيلاء على الاراضي واحتلالها ، شأنه في هذا شأن المدفعية . فاذا لم يقيض للقوى الجوية ان تتعاون وعناصر برية منتقاة ، لا يبقى امامها سوى اختيار واحدة من خطتين : اما تضييق دائرة نشاطها مستهدفة بتدخلها مساعدة الجيوش

البرية ، او ان تعمل بمعزل عن القوى الارضية مساهمة في احراز النتائج المشتركة مساهمة غير مباشرة .

تلك كانت مهمة الطيران في الحرب الماضية . فقد استخدمه الفريقان تارة في ضرب المؤخرة والنقاط القريبة منها ، وتارة اخرى في ضرب اهداف اكثر اهمية كالاوساط الصناعية والموانىء وعقد المواصلات . وكان هذا القصف الجوي يحدث نتائج عظيمة ولكنها عديمة الاثر كعنصر حاسم في القتال . فالطائرات والمناطيد كانت تعود من سماء باريس او كولونيا موقنة بانها زرعت الموت والحريق ، بيد ان هذا النشاط التخريبي لم يكن ذا اثر في تسهيل مهمة الزاحفين ، فما ادناهم شبراً واحداً من الهدف . ذلك انه لم تكن ثمة صلة بين الاغارات وبين المجهود البطيء يقوم به الجيش مهاجماً كان او مدافعاً عن الارض ، هذا الهدف الحربي الحقيقي لان الناس يعيشون عليه .

اما وقد اصبحت الاغارات الطويلة الامد ممكنة عملياً فالارتباط بين حرب السماء وحرب الارض صار امراً ميسوراً . وصار في وسع المحاربين بعد الآن ان يستثمروا فوراً التخريب المادي والمعنوي الذي يتسبب عن الضرب الجوي . ان شل العمل في « حوض الرور » باغارات انقضاضية يؤثر في مجموع وسائل النضال عند الشعب الالماني . فاذا قام الى جانب الطيران جيش بري قادر على القيام بعمليات بعيدة المدى فانه يستطيع الافادة من المجهود الجوي باسراعه الى احتلال المنطقة المنكوبة . ان حماية جسور نهر « الرين »

في « كوبلانس » و « مايانس » عندما تكون رحى المعركة دائرة حول « متز » لتدبير حكيم ونافع في جميع الحـالات ، ولكن اية فائدة تبقى له اذا برزت المدافع والرشاشات على ضفـاف النهر ؟ ومجمل القول ، سيكون تحت الشجرة ساعة تهزها العاصفـة ، من ينحني لالتقاط الثمار الساقطة .

ولما كان عمل القوى الجوية يمدد عمل جيش الصدام ، فطبيعي ان يفضي هذا التعاون بينهما الى فسح المجال امام « العمليـات المشتركة » وهي اليوم موضع جدل عقيم في بعض الاوساط .

وصلت القوة الى الذروة في الحرب الاخيرة ولكنها كانت قوة فظة ، غامضة ، مجهولة المصدر . فاذا اضيفت اليها السرعة وجيش النخبة يستطيع التقدم ان يحقق على ايديها مجتمعة التعـاون الوثيق بين مختلف الاسلحة .

القيادة

١

ان استخدام القوة وفاقاً للاساليب والقواعد المستحدثة من شأنه ان يدخل تعديلاً على ممارسة القيادة ، بيد ان هـذا التعديل لا يتناول المبدأ نفسه ، فدور القائـد ، سواء كان مرؤوسوه مسلحين بالسيوف والرماح او ممتطين دبابات وسيـارات مصفحة ، يتطلب منه دائماً ان يرسم خططاً جديدة تبعـاً للظروف وان يقرر ويصدر التعليمات متغلباً على طبيعته وطبيعـة الآخرين ، وان يسعى بعد الشروع في العمليات ، الى لم شعث وسائله التي تبعثرها الحوادث باستمرار .

للقيادة نوع من الفلسفة الثابتة ، ثبات الطبيعـة البشرية ، لا يتبدل بتبدل الازمان . وهذه الفلسفة هي الامثولة الحقيقية الـتي تستخرج من التاريخ العسكري . كان شارل الثاني عشر اذ يبكي عند سرد فتوحات الاسكندر ، وبونابرت اذ ينكب على درس حمـلات فريدريك ، وفوش اذ يعلم اساليب نابوليون ، كانوا هم الثلاثة مقتنعين باستمرار فلسفة القيادة وثباتها . فترفع الانسان عن

اهوائه وارتفاعه فوق نفسه ليستطيع ان يسود الآخرين وبالتالي الحوادث ، مجهودان لا يتناولها التغيير في جوهرها ، ولكنه يتناول الاساليب من اسسها .

وفي الواقع كان فن القائد ، ايام كان القتال عملية قائمة على عضلات الرجال والجياد ، ينحصر في حشد الجيش بالنسبة الى العدو والارض والشمس ، بحيث تأتي ضربات السيف ، طولا وعرضاً ، فعالة ومتداركة . ولما كانت قوة الضربات متوقفة على عزم الجيش وحماسته فقد كان على القيادة ان تثير في صفوف المرؤوسين وثبات نفسانية تضاعف قوة الصدام . ولم يكن ثمة حائل يمنع الرئيس ، صغيراً كان او كبيراً ، من ان يتتبع تطورات المعركة من كثب وبالنظر المجرد لان القتال كان يدور من مسافات قريبة بين رجال وقوف متراصي الصفوف ، اي ان القائد كان يدير المعركة ويصدر اوامره وتعليماته دون ان يلجأ الى الوسطاء ، ويؤثر بحضوره في مسلك المقاتلين . في تلك الايام كانت المناورة نظرة والنفوذ والهيبة وليدي الاثر الذي يحدثه وجود الرئيس في صفوف مرؤوسيه . وهكذا كان هنيبعل يحرز الانتصارات بنظره الحاد وبالقدوة الحسنة.

وجاءت الاسلحة النارية ، فاصبحت الحرب في حالة تطور مزمن مع ان اشكالها لم تتبدل منذ فجر التاريخ . وها هو تقدم السلاح يطرد مع كر الاعوام ، فالآلات النارية ليست مجرد تمديد لاعضاء الانسان كما هي الحال مع السيف والرمح ، ان لها ، بقطع النظر عن مهارة الجنود وشجاعتهم ، ميزات خاصة يجب الانتفاع بها ،

وتفرض واجبات قاسية لا يسع المحاربين التهرب من القيام بها .
فمدى الاسلحة النارية ومقدرتها على الفتك وسرعة الرماية بها
وتلقيمها عوامل جعلت منها عناصر جوهرية في اختيار التشكيلات
وميدان المعركة وزمانها . وكان من جراء تباعد الفواصل وامتداد
المسافات تبعاً لاتساع دائرة عمل السلاح ، واضطرار الجيوش الى
الاختباء كلما دارت رحى القتال على ارض مكشوفة ، ان تعذر على
القائد ان يرى بسهولة ما يحدث ضمن الدائرة الخاضعة لاشرافه .
لهذا رأينا عمل الرئيس المباشر يتسع نطاقاً يوماً بعد آخر ، وصار
القائد الماهر من تكفل تدابيره وخططه استخدام الاسلحة النارية
استخداماً مجدياً . ولكن لما كان ظهوره بين الجميع امراً متعذراً
فقد كان يجتهد في ان يبعث في الصفوف حمية مضمرة حتى اذا
دقت ساعة الصدام الحاسم يبرز بين جنوده في الزمان والمكان
الملائمين . تلك كانت خطة كونده وهوش ونابوليون .

وفي الحرب العالمية الاخيرة تجلت اهمية العناصر المادية باجلى
مظاهرها ، ففقدت الشجاعة قيمتها امام نيران الرشاشات والمدفعية
المركزة . وحتمت قوة السلاح ان تستوفي كل عملية من
العمليات شروطاً عددية . وصار تقدير مدى الاسلحة وثقلها وسرعتها
واحكامها اساس المشاريع جميعاً ، فلم يبق ثمة نفع من القرارات
الجريئة اذا لم يسبقها حشد عدد من المدافع ذات عيار معين ،
وامكانيات محسوبة على اساس الوقت والمدى والكمية (كمية

القنابل التي يمكن اطلاقها في وقت ما) . ولما كانت هذه التدابير الحسابية والقياسية تتطلب تعاون عدة اختصاصيين فقد نيط وضع الخطط والتصاميم اللازمة باركان الحرب التي يمكنها ان تتحرك بسهولة تبعاً لتطور القتال .

نعم ، بقيت التبعات لاصقة بالرؤساء ، بيد ان القرارات الخطيرة والمشاريع الموفقة لم تكن دائماً نتيجة تفكيرهم السليم وذكائهم الوقاد . فقد كانوا يعتمدون اقتراحات مساعديهم المبنية على الدرس والاختبار . ولا بد من الملاحظة ان اتساع الجبهات وتوغل المقاتلين عميقاً في زحفهم نحو الهدف ، كان يحول دون اتصال الرؤساء الاعلين بالقوات العاملة تحت امرتهم ، اي ان عين القائد لم تكن لترى من المعركة سوى الخريطة . وعلى الجملة تضافرت عدة عناصر على وسم القيادة بطابع غفل فكان الجنود يقاتلون وليس فيهم من يعرف اسم القائد الذي نيطت به مقدرات الجيش والوطن .

ما من ريب في ان قيادة الوحدات الآلية في المستقبل ستتأثر بالفن الى ابعد حد ، فتنكمش في جهاز القوى المسلحة « حدود الممكن والضروري » فاسحة المجال امام متطلبات الاعتدة الحديثة . فللآلة خصائص ومؤهلات غير قابلة للتكيف تبعاً للظروف ، ولها مقابل هذا حاجات لا يمكن ضغطها بقصد التخفيف منها . ففي الماضي كان اخلاص الجنود يتيح للقائد ان يستنفد نشاطهم ويدفع بهم الى الامام مسافات طويلة ، فيمشون حفاة ، عراة ، جائعين . اما في المستقبل فالمحركات المقاتلة تقف مسمرة في مكانها حالما يستنفد

زيتها ، وترفض ان تنطلق باكثر من السرعة التي مهرها بها صانعوها . يضاف الى هذا ان تعقد الجهاز الحربي يقتضي في القيادة مؤهلات فنية (تكنيكية) بارزة . وليس معنى هذا انه ينبغي للقائد ان يكون مهندساً ، انما يحسن به ان يكون محيطاً احاطة تامة باسرار الآلة ، مطلعاً على دقائقها ، عارفاً امكانياتها وحاجاتها .

قلنا ان الآلة تسم الحرب بطابعها ، فطبيعي والحالة هذه ان تتطلب من القادة سرعة في التصميم والتنفيذ ، بحيث يقدرون الظروف ويرسمون الخطط ويتخذون القرارات ويصدرون الاوامر والتعليمات في بضع دقائق . الا ان العجلة لا تشمل الاعمال الاعدادية والتدابير ذات الصبغة الاحتياطية التي لا مندوحة عن اللجوء اليها لقطع الطريق على المصادفة . ولكن تدخل القيادة باقصى سرعة يصبح ضرورياً ابان المعركة ، ففي الحرب الحديثة لا يبقى مجال للمناورات المهيأة سلفاً وللهجمات المقررة لانقطاع كل صلة بين الآمر والمنفذ ، فالمفاجآت المتلاحقة والسرعة التي يتم بها انتشار الوحدات المتحركة تحتم على القادة ان ينزلوا بانفسهم الى الساحة او ان يحلقوا فوقها ليروا بام العين تطور القتال وما يتطلبه من تدابير اضافية .

ولن يكون لهذا التحول يطرأ على اساليب القيادة عواقب ذات صبغة فنية فحسب ، بل سيكون له عواقب لها صبغتها المعنوية ايضاً ، ففي جيش تؤهله تجهيزاته وتنشئته للعمل المستقل يتعين على القائد ان يتخذ سلسلة قرارات كانت الحرب الماضية تعفيه منها ، فهو

لن يضطر الى التقيد بتعليمات الرئاسة العليا ولا للعود الى رأيها قبل ان يخطو الخطوة الحاسمة ، فالبداهة هي التي تسود الموقف متحدية الاوامر والتعليمات السابقـة ، والسجية التي طالما خافها الرؤساء الاعلون واحترمهـا المرؤوسون في قوادهم ستدعى الى احتـلال مركـزها المرموق .

ستبعث في الجيش المحترف الحيـاة العائلية لان الجنود يعرفون قائدهم ويشاهدونه بينهم مراراً في اليوم الواحد ، ولم يكن هـذا شأنهم مع الرؤساء قبل انخراطهم في جيش النخبة ، لهذا لم تكن ثمة رابطة تشدهم الى قادة يسوقونهم الى الموت باوامر مضروبة على الآلة ولم يروا لهم وجهاً الا في مناسبات خاصة .

نعم ، كانت الارادة الحسنة وروح النظام يكفلان اطاعة الجنود وائتمارهم اوامر الرؤساء ، ولكن اين هذه الصلة البعيدة من العلاقات الوثيقة التي كانت تقوم بين قادة الجيش الامبراطوري ومرؤوسيهم ؟ كان المقاتل المقدوني يندفع الى لقـاء الموت فرحاً مستبشراً لان الاسكندر يراه ، وكان الجنـدي الروماني يموت في سبيل قيصر ، ورجال الحرس الامبراطوري يهتفون لنابوليون وهم يجودون بالنفس الاخير . لم يبق من اثر للشعلة التي كانت تحيط القيادة بهالة من الوقار والمجد ، وللاخلاص بجعل من الجندي آلة بيد رئيسه .

سيتاح غداً للمحترفين الذين يجدون في النظام العسكري مثلهم الاعلى ان يعرفوا رؤساءهم معرفة تامة فينجم عن هذا التماس عطف متبادل ويزداد نفوذ القادة على جنودهم ويظهر اثره في ميـدان

المعركة حيث يزيد شكل القتال الفريقين تقارباً . ذلك ان الرؤساء مضطرون لتتبع سير العمليات عن كثب ليتسنى لهم ان يقبضوا باستمرار على زمام الموقف ، فيراهم الجنود ويتأثرون بمسلكهم فيزيدهم هذا التأثر اندفاعاً واستبسالا . وفي التاريخ شواهد عديدة على ما يحدثه دنو الرئيس من خطوط النار في نفوس العاملين تحت امرته . وهب ان احياء هذا التقليد في جيش النخبة سيترتب عليه سقوط عدد من القادة ، فان حادثاً من هذا النوع يزيد رفاقة السلاح جمالا واواصرها احكاماً .

٢

القيادة الحسنة هي نتيجة مجهود طويل ، وهي ايضاً بنت العبقرية والفضائل العسكرية الممتازة . ولكن ، في كل مرة من المرات التي كان فيها مصير شعب من الشعوب عرضة للخطر في ميدان المعركة ، نم مسلك القادة عن درجة الخبرة التي اكتسبوها وهم في وظائفهم وعن مدى نفوذهم وسلطتهم في الجيوش العاملة تحت امرتهم .

في الماضي كانت الحروب تتعاقب باستمرار ، وكانت تنشئة القادة تتم بالمران الطويل واختيارهم بالامتحان والاختبار . فالقائد « بايار » لم يقعد عن امتشاق الحسام في حياته كرجل الا ثلاث سنين فقط . واشترك « كاتينا » (١ في ثمان وعشرين حملة ،

---

١) من اشهر القادة الفرنسيين على عهد لويس الرابع عشر .

وحارب « دافو » (٢ ثلاثة وعشرين عاماً، فاية حاجة تبقى والحالة هذه لتنظيم تنشئة قادة المستقبل ؟ كانت الحرب نفسها تقوم بهذه المهمة وتتولى ابراز صفات الرؤساء . اما في عصرنا فقد اتسعت الحرب نطاقاً وازدادت هولا ، وهذا ما يحمل الشعوب على تجنبها واللجوء اليها في النادر القليل . وتتميز كل حرب من الحروب الحديثة بمظاهر خاصة تقيم بينها وبين سابقاتها فوارق اساسية يصبح معها اجتهاد القادة ونشاطهم غير كافيين اذ تعوزهم الخبرة والاحاطة بكل جديد . ولما كان لا مندوحة لهم عن تعلم الاساليب المستجدة فان النظريات تقدم اليهم الدروس اللازمة . وهنا يبدأ الخطر . نعم، أوجدت نظريات « مولتكه » في زمن السلم هيئة اركان حرب مستعدة أتم استعداد لأداء المهمة التي تنتظرها . ولا مجال لانكار مواهب القيادة التي مهر بها الجيش الفرنسي سنة ١٩١٤ . الا ان هذا لم يمنع وقوع اخطاء عديدة ابان المعارك الاولى سواء في قيادة الجيوش او في مواجهة الحالات الطارئة . وقد كشفت المعارك المذكورة عن مواهب كانت مغمورة وعيوب كانت مجهولة .

صحيح ان جيش اليوم ، بعد ان ادرك على ضوء معارك الحرب الاخيرة ما يترتب على مقدرة القيادة وما يكلفه عجزها ، يقوم بمجهود احترافي واسع النطاق . فالى جانب المدارس العسكرية يلتقي الضباط من كل الرتب في اندية وأوساط وجامعات وقاعات تلقى

---

٢) من اشهر قادة الجيش الامبراطوري ، وكان نابوليون الاول يعتمد عليه في المهام الدقيقة .

فيها محاضرات عن حرب المستقبل . وقد ازدادت التمارين العسكرية في الثكنات زيادة كبرى وتعددت لجان الدرس والاختيار والتدقيق لان الجندية تتطلب من المنتسبين اليها ، أياً كانت رتبتهم ، زيادة مطردة في المعرفة المكتسبة . وهكذا يرى الجمهور بشيء من الدهشة قادة ابيضت شعورهم يهرعون الى مكان المحاضرة وقد تأبطوا قرطاسية الطلبة . على اننا اذا تعمقنا في درس هذا النشاط نلاحظ ان الاهتمام بالمستقبل يفسح بعض المجال لاحترام الماضي . ويبدو على الجسم العسكري انه ينزع دائماً الى تنشئة القادة تنشئة تتيح لهم أن يعملوا في ظروف وملابسات مماثلة للتي مرت بالبلاد . ولهذا نرى ان الجهود تبذل في سبيل تدريب كل واحد من رجال القوى المسلحة على تمثيل دوره في جهاز تسوده المركزية ، على ان يتقيد بقواعد معينة واجهزة قاسية . وينجم عن هذا وحدة ممتازة وسياق لا عيب فيه ، ولكن المبادىء المستحدثة تبعاً لاستحداث وسائل القتال تجد في هذه الصلابة وهذا الجمود عقبات يجب العمل على ازالتها .

ومما تجدر الاشارة اليه ان العهود التاريخية التي سجلت للقادة أعمالا باهرة ومزايا عالية هي العهود التي لم يكن فيها أثر للاساليب المدرسية . فالرؤساء العظام الذين يروون فتوحاتهم لا يشيرون الى ما درسوه على الذين سبقوهم ، فليس في تعليقات قيصر أية اشارة الى المبادىء بل هي مقصورة على عرض للملابسات والقرارات . ومن أين استوحى غوستاف ادولف والبرنس اوجين وموريس دي ساكس خططهم الناجحة ان لم يكن من عبقريتهم الخاصة ؟

ولم يكـن لقواد الثـورة والامبراطورية الذين احرزوا اروع الانتصارات نظام عسكري يتقيدون به . وثمة حـادث جـدير بالملاحظـة وهو ان رؤساء الحرب الكـبرى الذين برهنوا عن مؤهلات كاملة هم الذين اشتهروا قبل الحرب بتنكرهم للتعـاليم الرسمية . وما من ريب في ان هؤلاء وأولئك كانوا محيطين احاطة تامة بالوسائل الموضوعة تحت تصرفهم كما كانت لهم القدرة الكافية . بيد ان الشعاع المولد الذي كان ينبثق في الظروف العصيبة ما كان مصدره التعاليم المكتوبة ، بل كان الفضل في التدابير الموفقة يعود الى بداهة القائد وحضور ذهنه .

ان تنشئة رؤساء يعهد اليهم غداً بقيادة جيوش النخبة تتطلب تغييراً اساسياً في اسلوب التعليم الذي يرتكز بحالتـه الحاضرة على ما يستوحى من النظريات والمعلومات المكتسبة تلقى الى رؤساء الغد من على منابر مراقبة جيداً . يجب ان تستهدف تنشئة الرؤسـاء خلق الشخصيات وتعهدهـا دون ان يفضي هـذا الى تشجيـع الادعاآت الوقحة والاستبداد بالرأي ، فالعملية العسكرية مهما يكن شكلها تتطلب قبل كل شيء درس عناصر المسـألة درساً لا يتـأثر بالاهواء الخاصة ، مع العلم ان لوسائل القتال امكانيات محـدودة لا مندوحة عن الوقوف عندها . الا ان هذا لا يعني تقيـد الرئيس بالتطبيقات التي وضعتها السوابق في متناوله بل يحسن به ان يعتمد في هذا الحقل اختياراته الشخصية واسلوبه الخاص في توجيه الضباط بحيث تستهدف الفلسفة الحديثة لتنشئة رؤساء الغـد شغل مخيـلاتهم

وتنمية موهبة التقدير والتصميم عندهم لينشأوا اقوياء واحراراً من اجل انفسهم . فالمدرسة الحقيقية للقيادة هي والحالة هذه الثقافة العامة ، فبدونها تذهب المعرفة الفنية هباء ، وبها يقوم العقل البشري بوظيفته قياماً يسوده النظام مميزاً بين ما هو جوهري وما هو فرعي من الاشياء ، مرتفعاً الى المستوى الذي تبدو منه المرئيات ولا تداخل بينها . فليس بين عظماء القادة رجل واحد لم يغرف من نتاج الفكر البشري ، ففي صميم انتصارات الاسكندر نجد دائماً شيئاً من ارسطو .

بيد ان البشر ، في الجيش وخارجه ، لا يتكيفون بالتعليم فقط ، فالحياة تطبعهم بطابعها . ان اظهار البداهة في المناورات لا يجدي نفعاً اذا كانت الحياة العسكرية تنزع الى جعلها عقيمة . ولا بد من الاعتراف بان نظام القيادة والادارة المطبق في الجيوش والدوائر التابعة لها لا يشجع على العمل المستقل لان مركزية شديدة الوطأة تجثم على صدرها ، وهي لا تضع في متناول الرؤساء من جميع الرتب الوسائل التي تتيح لهم التملص من التبعات فحسب ، بل تفرض عليهم هذا التملص فرضاً . واذا اعلن المسؤولون رسمياً انهم يعلقون على الرؤساء اطيب الآمال فمعنى هذا انهم يرغبون اليهم التقيد بالتعليمات المعطاة والانظمة القائمة .

ولكن القانون يزداد تناقضاً كلما ازداد تعقداً ، وما من قوة بشرية تستطيع ان تنفذ بامانة منطوق عدد لا يحصى من الانظمة . لهذا نرى ان السلطة ، وان تكن شديدة الوطأة بما تفرضه على

المرؤوسين ، هي ابعد من ان تكون سلطة دكتاتورية . انها على الضد من ذلك ، تفقد شيئاً فشيئاً نفوذها وهيبتها بمداخلاتها المبالغ فيها .

ان نظاماً كهذا قد يألفه جيش السواد . اما الجيش المحترف المعد للاعمال السريعة فيجب ان يكون تدخل السلطة العليا فيه مقصوراً على تعيين الهدف لكل وحدة من وحداته ، واثارة روح التنافس فيما بينها ، واخيراً تقدير النتائج . اما طريقة العمل فيجب ان يترك امرها لقائد الوحدة لان اللامركزية تبرز المواهب وتشحذ الهمم .

على انه مهما يكن مفعول التعليم الاكثر حرية والاستقلال الاوسع في ابراز قيم الرؤساء ، فالمجهود الشخصي الذي يقوم به في الخفاء الذين يطمحون الى القيادة يمثل في هذا الحقل الدور الرئيسي لانه اذا كانت الدروس والمشاغل اليومية تكفي لتنشئة معظم الضباط فالاقوياء بينهم ينشئون انفسهم بانفسهم . لهذا نرى هذا الفريق يقف وحده في الساعات الحرجة التي تطيح بالعرف والعادة والانظمة والتعاليم . ومن هنا كان وجوده ضرورياً ، وصار لزاماً على الدولة ان تخص هذه الفئة بالتفات خاص لانها ستكون العون الاكبر .

ومن الضروري ان يغذى طموح الجندي بما يقيه شر التفسخ ، ولا يكون هذا بسعيه الى نيل الرتب والحصول على الاوسمة ، بل يكون بالطموح الى تمثيل دور عظيم في الحوادث الجسام . ان جيشاً منخوباً يعيش وليس بين حنايا ضلوعه حنين الى القتال لا يعتم ان يأخذ بالانحطاط . فيتعين على الدولة اذن ان تغذي في

جيشها الميل الى العمل البطولي والمآتي العظيمة لان المجد لا يسلم قياده الا للذين حلموا به دائماً .

٣

وهكذا فان انشاء جيش من المتطوعة مجهز باكمل عدة ، هو اصلاح خطير الشأن فضلا عن كونه ضرورة ملحة تجاري النزعة الى التطور ، على ان يطرأ على روحه تعديل جوهري كما هي الحال في ادارة فن الحرب . وهذا الاصلاح لا نجد في تاريخ الجيش الفرنسي ما يماثله من حيث الاتساع والنتائج سوى اربعة أو خمسة اصلاحات في الاكثر .

ومما لا شك فيه ان هذا التجدد لن يرضى عنه الجسم العسكري ولا يمكن ان يصدر عنه الا اذا جرته اليه سلطة قوية . ذلك ان الجيش محافظ بطبيعته متمرد على التبدل . ولا يعني هذا ان خدام العلم لا يشعرون باهمية التقدم والرقي ، لا ، بل من السهل ان نسوق ادلة كثيرة على ان الجيش بين جميع المنظمات يقدم اكبر عدد ممكن من رجال الفكر والعلم والعمل . بيد ان سعة الصدر ورحابة الفكر عند الافراد لا تعوضان من فقر عند المجموع .

ان الجيش الذي يعيش حياة ثبات وتقاليد ينفر بطبيعته من كل ما يتهدد كيانه بالتعديل . وفوق هذا هناك تسلسل رتبوي قاس يغربل المشاريع وينخلها نخلا فلا يصل منها شيء الى السلطة العليا . وتوجد اخطاء العهود السلمية بين الدوائر التي تحضر المقررات ،

منافسات يثيرها الحسد فتقف حجر عثرة في طريق الاصلاحات المفيدة .

يضاف الى هذا وذاك ان هذا التروي يجد ما يبرره في الهزات العنيفة التي تحدثها في الجيش مؤثرات خارجية . فالجهاز العسكري في فرنسا تتعهده ايد كثيرة فتدخل عليه التعديل تلو الآخر وتتفرد في الاعمال الاعدادية حتى اذا دقت ساعة التنفيذ دعي ارباب الاختصاص الى تحمل التبعات . فالعالم كله يعرف اسم القائد السيء الحظ الذي خسر معركة الحدود واسم زميله السعيد الذي ربح معركة المارن . ولكن هيهات ان يحيط الانسان باسماء جميع الوزراء والخطباء والمقررين الخ ... الذين ساهموا في الربح والخسران بقراراتهم وخططهم واقتراحاتهم .

اليس طبيعياً والحالة هذه الا يتحمس الجيش للاصلاحات الواسعة النطاق وان يقف رؤساؤه المباشرون من كل نزعة ترمي الى التجدد موقفاً يشوبه الحذر والتردد ؟

وفي تاريخ فرنسا اكثر من شاهد على نفور الجيش من الاصلاح . فقد ثارت الجماعات المسلحة عندما سرحها شارل السابع ليحل محلها جيش دائم . ولقي مشروع الوزير « لوفوا » القاضي بانشاء جيش نظامي معارضة شديدة من جانب ضباط الملاكات القديمة . ولم يتحمس جيش الامبراطورية للمشروع الاصلاحي الذي طلع به « غوفيون سان سير » سنة ١٨١٨ . وردت اللجنة العسكرية سنة ١٨٦٧ اقتراح المرشال نييل الرامي الى انشاء عدة فرق احتياطية .

اما اصلاح سنة ١٨٧٢ فيعود الفضل في تحقيقه الى المسيو تييرس رئيس الجمهورية ، ولم يصدر عن العسكريين انفسهم .

ان قيام الجيش المحترف غـداً مجهزاً بالمـادة والروح الجديدين اللذين يظل بدونهما مؤسسة عتيقة لا امل يرجى منهـا ، يقتضي ظهور رئيس مستقل في احكامه ، لا يناقش اوامره احـد ويوليه الرأي العام ثقته التامة . رئيس يكون خادماً للدولة وحدها ، مجرداً عن الاوهام ، لا محاسيب له ، يخلو الى مهمته ليقف نشاطه عليها ، ويرسم خططاً كبرى . رئيس لاصق بالجيش ، مخلص للذين يقودهم ، تواق الى تحمل التبعات ، يفرض نفسه فرضاً بمـا له من قوة ، ويجذب الناس بمهارته ، وعلى الجملة يجب ان يقوم رئيس عظيم ، وزيراً كان او جندياً ، بتحقيق الاصلاح المنشود .

يتبادر الى الاذهان ، ان نحن اخذنا بالمظاهر ، ان جهـاز الحكم بحالته الحاضرة لا يفسح امام احد مجـال العمل على تحقيق هذا المشروع الخطير . فالحياة العامة يسودها الاضطراب من جراء تداخل الصلاحيات بحيث يستحيل تمييز النشاط المفيد بين مجموعـة اجهزة متشابكة . ولكن هذه الحالة نفسها تثير اليوم رغبة عامـة في تلمس العلاج ، لان التعارض واضح بين جمود الهيئات الحاكمة ونشاط المجتمع . وقريباً يتنكر جيلنا لمظـاهر البطء والتشويش والضعف وهو يرى الى سرعة الانتاج وينزع الى الصراحة والنور ويمجـد القوة . ففي الجو امارات عديدة تشير الى قرب حدوث هذا التطور ، فما من حزب او منظمة الا ويطالب بالانعـاش

والسلطة والنظـام الجديد ، وما من ريب في ان ابواب المؤسسات ستفتح قريباً على مصاريعها امام الاكثر عزماً من الناس .

فلئن يبدأ الصهر الوطني بالجيش فلن يكون في هذا اي تعارض والنظام الطبيعي للاشياء ، لا لان القوة ضرورية للامم التي تنشد الحياة فحسب ، بل لان الجسم العسكري يعبر اصدق تعبير عن روح المجتمع . فقد عرفت روما من خلال تاريخ جحافلها ، وكانت جيوش الملكية مرآة العهد الملكي ، ومتطوعو العهد الثوري مرآة الثورة ، وسيكون الجيش الجديد مـلاذاً لفرنسا وخميرة ، فيتجدد به شبابها ، لان السيف هو محور العـالم ولان العظمة لا تتجزأ .

فهرست

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطبعة الكشاف بيروت

في ٨ ايلول ١٩٤٣